

الأديب أبو المهيمة بن حزم الأندلسي

دراسة في نشره

الدكتور

حازم عبدالله خضر

استاذ بقسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة الموصل

بين يدي البحث

يكاد الباحثون يجمعون على ان فترة القرن الخامس للهجرة كانت من اخصب فترات حياة المسلمين في شبه جزيرة ايبيريا على صعيد العلم والأدب ظهر كثير من ملاحظيها في المؤلفات والأثار الثقافية والعلمية الغزيرة الكثيرة ، إلى جانب ما شهدته الفترة على ساحة الأدب والادباء من اعلام الادب كانت لهم اثار عديدة في ميداني الشعر والنثر وكثير منهم جمع بين الفنين امثال ابن دراج القسطلي وابن شهيد وابي المغيرة بن حزم وابي محمد بن حزم وابن زيدون وابن خفاجة وابن وهبون وغيرهم كثير ...

وفي حدود هذا البحث وعـلى صفحاته نحاول لقاء الضوء على شخصية اديبة من هؤلاء لم تنل - في حدود علمي - ما تستحقه من الدراسة والنظر فيما تركته من آثار اديبة ؛ تلك هي شخصية ابي المغيرة عبد الوهاب بن حزم وذلك عبر النصوص التي اوردها ذخيرة ابن بسام إلى جانب عدد من المصادر المشرقية والأندلسية ، وقد تضمنت قطعاً ثرية ومجموعات شعرية مطرزة بأنواع من اساليب الزخرف اللفظي والمعنوي واساليب متنوعة من ألوان الحوار والرسائل وصور من المواقف المختلفة مع المعاصرين لأبي المغيرة من الأدباء

والعلماء مثل ابي محمد بن حزم الفقيه الأديب وابن شهيد وغيرهما .
ولعل من مسوغات اختيار هذا الأديب في هذه الدراسة انه لم يتناول مفصلاً
من قبل الباحثين في الأدب الأندلسي اذا استثنينا اشارات عدد قليل منهم في
سياق الحديث عن ادب الفترة كلها او الحديث عن اديب خاص في معاصريه
مثل ابن حزم ابي محمد ، ولم تكن تلك الاشارات كافية لاعطاء فكرة موجزة
واضحة عن ادب ابي المغيرة وسمات ملكته المزوجة ...

وقد يكون من المسوغات الأخرى لدراسته ؛ أهمية الفترة التي عاش فيها
والعلاقات التي كانت له مع الأمراء الذين يشكلون صوراً متنوعة في فترة
الفننة وجانباً من عهد الطوائف ، إلى جانب علاقات ادبية وعلمية مع اعلام
العصر واصدء ذلك كله في شعر ابي المغيرة ونثره .

ويمكن ان نضيف إلى ما سبق ؛ النتائج التي يوفق الله تعالى إلى الوصول
اليها من سمات الأحوال السياسية والاجتماعية والثقافية والفكرية ، التي
احتواها ادبه وكانت ذات دلالات عسلى احوال المجتمع وسمات حياته ولما
كان لابي المغيرة شعر ونثر ترتب على البحث ان يتناول دراسة ادبه في قسمين
القسم الاول : يبحث في نثر ابي المغيرة في مضمونه وشكله وعرض مضامين
نصوصه وسمات تلك النصوص بعد التعريف باسم الاديب ونسبه ومولده
ونشأته وثقافته في حدود ما يستوعبه البحث المعد للنشر في مجلة علمية .
اما القسم الثاني فهو بحث مستقل يعني بدراسة شعر ابي المغيرة في مضمونه
وشكله وسماته من خلال النصوص الواردة له في الذخيرة وغيرها .

ابو المغيرة بن حزم (١٠-٥٤٣٨هـ)

اسمه ونسبه

عبد الوهاب بن احمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم ابو المغيرة الوزير
الكاتب (١) اما الكنية فاننا لا نعلم لها اصلاً سواء في الأخبار التي عرفت به

(١) جذوة ، الفتيس ، الحميدي - ت ٦٥٨ ص ٢٩١ - ٢٩٢ .

وينظر في ترجمته كذلك : بغية اللئس ، الضبي ص ٣٨ .

والصلة لابن بشكروا ص ٣٨٠ ومطبع الانفس وسرح التانس / الفتح ابن خاقان

ص ٢٠٢ - ٢٠٣

او الصوص الأدبية التي اثرت عنه وبهذا لا يستطيع الباحث ان يحدد اصل هذه الكنية هل هي لولده له اسمه المغيرة ام انها مجرد كسنية اطلقت عليه او اطلقتها هو على نفسه ثم عرف بها واشتهر .

اول النسب المذكور فيتردد في المصادر التي عرفت به وهي قديمة معروفة وما يلفت النظر في جملة تلك التعاريف اجماعها على القول بأن ابا المغيرة هو ابن عم الفقيه الأديب ابي محمد بن حزم وربما كانت قد اخذت ذلك من بعض الاشارات الواردة في شعر ابي محمد الفقيه ، ولكن هذه النسبة تلبو لدى المتأمل في سلسلة نسب الاديين انها تنطوي على تجوز واضح في تحديد العلاقة بينهما بعلاقة العمومة ، فأبو محمد بن حزم هو :

علي بن احمد بن سعيد بن حزم ، وحين نوازن بين النسبين يبدو لنا انهما يلتقيان في الجد - سعيد بن حزم - ونفهم ايضاً ان عبدالرحمن هو جد ابي المغيرة لكنه لم يذكر في سلسلة نسب ابي محمد الفقيه ، كما ان الاثنين سمي كل منهما باسم احمد ثم يفترقان فيصبح جد ابي المغيرة هو عبدالرحمن في حين يكون جد ابي محمد هو سعيد الذي يأتي في نسب ابي المغيرة والد جده .

على ان الصلة واضحة قوية بين الرجلين مما يجعل اطلاق صلة العمومة بينهما مقبولا وارداً وهو مما يستعمل كثيراً حتى بالنسبة للغرباء في تعابير العرب والصلات التي تربط بين الاقران والأصحاب فضلاً عن المنحدرين من جد واحد .

ويشير عدد من المصادر إلى ان ابا المغيرة وأبا محمد ينتسبان إلى اسرة اندلسية تنحدر من اصل اعجمي غير اسلامي وذلك على نحو ما يذكره ابن يسام نقلاً عن مؤرخ الأندلس في القرن الخامس ابي مروان بن حيان فيقول ضمنين التعريف بأبي محمد الفقيه ... وقد كان من غرائبه انتماؤه في فارس ، واتباع اهل بيته له في ذلك بعد حقبة من الدهر تولى فيها ابوه الوزير المعقل في زمانه

الراجح في ميزانه ؛ احمد بن سعيد بن حزم لبني امية اولياء نعمته ، لاعن صحة ولاية لهم عليه ، فقد عهدته الناس خامل الأبوة ، مولد الأرومة من عجم لبلة ، جده الأذنى حديث عهد بالاسلام ... (١).

مولده ووفاته

لم يكن أبو المغيرة في مولده مخالفاً عن كثيرين من الشخصيات العلمية والأدبية التي لا يعرف تاريخ مولدها تحديداً من أي مصدر من المصادر التي ترجمت لها ولهذا وجدنا هذه المصادر تسكت أو تمسك عن أية إشارة تدل من قريب أو بعيد على تاريخ مولد أبي المغيرة مع أنه ولد في فترة مهمة من تاريخ الأندلس في أواخر القرن الرابع للهجرة ، فلا يجد الباحث أمامه إلا الركون إلى التقدير استناداً إلى إشارات في الشعر أو النثر ، ومن ذلك مثلاً ما ورد في بعض المصادر من أن أبا المغيرة تحدث عن نفسه قائلاً : « نادمت المنصور ابن أبي عامر في منية السرور بالزاهرة ذات الحسن النضر ... » (٢). وهذا إذا صح فإنه يدل على أن أبا المغيرة قد ولد في أوائل الربع الأخير من القرن الرابع إذ المعلوم أن المنصور ابن أبي عامر كان قد توفي سنة ٣٩٢ هـ (٣). ومعنى ذلك أن أبا المغيرة قد كان يحضر مجالس المنصور قبل هذا التاريخ فإذا قدرنا أن عمره آنذاك كان دون العشرين بقليل فإنه لا بد أن يكون قد ولد في سنة ٣٧٠ هـ أو قبلها .

أما تاريخ وفاته فإن المصادر التي ترجمت له أوردت تاريخين متباغدين أما أولهما فيقول : « مات أبو المغيرة قريباً من العشرين وأربعمائة ... » (٤) . وهذا المصدر أقرب من غيره بالنسبة لأحداث الفتنة والطوائف من الثاني الذي يذهب إلى القول : « ... وتوفي بعسكر ابن ذي النون صاحب طليطلة مستهل صفر من سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة ودفن بطليطلة رحمه الله » (٥).

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسلام ق ١٦١ ص ١٧٠

(٢) فقه الطيب / المقرئ ٢ ص ١٤٧ - ١٤٨

(٣) البيان المغرب / ابن عذاري المراكشي ٢ ص ٣٠١ . والمطبع / الفتح ص ٤٤

(٤) جنة القتيب / الميمني ص ٢٩٢

(٥) الصلة / ابن بشكوال - القسم الثاني ص ٣٨١

والذي يبدو ان التاريخ اللاتيني أقرب إلى الصواب من الأول على الرغم من ان الأول اسبق منه وذلك لأن الاشارات الواردة في شعر ابي المغيرة ونشره تدل على وجوده بعد سنة ثلاثين وأربعمائة وربما كان من ادلة ذلك ان الخبيسر الثاني مفصل محدد حتى في الشهر والمكان وفترة الحكم المعينة المحددة يضاف إلى هذا ان الخبر نفسه منقول عن المقتبس لابن حيان مؤرخ الأندلس المشهور وهو قريب جدا من الفترة التي عاش فيها أبو المغيرة بل أنه قد عاش الفتنة بأحداثها الجسام وما انطوت عليه من الوان الاضطراب والقلق والتقلب السياسي والاجتماعي وغيره ، واذا تذكرنا ان معاصريه البارزين ابن عمه أبو محمد ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ وابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ . تأكدت لنا صحة ترجيح الوفاة في سنة ٤٣٨ هـ ، كما ذهب كثيرون من القدماء والمحدثين إلى ذلك .

نشأة ابي المغيرة وثقافته

لا تتوفر بين ايدينا أخبار وافية واضحة عن ابي المغيرة في حياته الاولى سواء في مولده ونشأته أو ثقافته وطلبه للعلم ، فالمصادر التي عرفت به جاءت عبارات اكثرها مختصرة مبسرة لا تكاد تتجاوز ذكر الاسم والنسب والصلة بالفقيه ابي محمد وتلك ظاهرة التناها في ترجمات العديد من الأدباء والعلماء الذين لم تذكر المصادر شيئا ذا قيمة عن مراحل حياتهم الأولى ، ويكاد واحد منها فقط ينفرد بإشارة عابرة مختصرة جدا حول أبي المغيرة في جانب حياته الثقافية الأولى ، اذ يقول في مقدمة ترجمته له : « ... يكنى ابا المغيرة ، له سماع من ابي القاسم الهمداني وغيره ... » (١) . وهذه العبارة تدل بوضوح — على الرغم من ايجازها — على ان أبا المغيرة قد أخذ علومه أو جانباً منها مساعداً عن الهمداني وآخرين . ولان نجد سوى ذلك من التفصيل أو الاشارة إلى العلوم التي سمعها وأخذها عن الهمداني وغيره ، وان كان المعروف المشهور ان الأندلس كانت تزخر بالعلماء والأدباء الذي يرجع اليهم

(١) الصلة / ابن بشكوال ت ٨١٥ ص ٢٨٠ القسم الثاني .

طلبة العلم وأصحاب المواهب العلمية والأدبية ليأخذوا أصول علومهم وقواعد آدابهم في شتى مضامينها وأشكالها ، ولا شك في أن يكون أبو المغيرة واحداً من هؤلاء الذين بدأوا حياتهم في ملازمة حلقات الدرس ومجالس العلماء يأخذون عن الشيوخ المعاصرين لهم ويتابعون ما يظهر من المؤلفات والمصنفات مشرقية وأندلسية ، ولعل مما يؤكد هذا بالنسبة لأبي المغيرة ما تركه من الآثار الثرية والشعرية — مما وصل إلينا — واستحق أو صاف البيان ونال إعجاب المشهورين من الأدباء والعلماء في عصره .

وأكثر من ذلك فإن خبرته العلمية والأدبية وقوة بياانه وفصاحة لسانه اهله أن يكون وزيراً كاتباً لعدد من أمراء عصره وفي مقدمتهم : المستظهر والمنذر ويحيى بن ذي النون .

على أن جوانب ثقافة أبي المغيرة لم تكن معتمدة على ما شاع في الأندلس فقط وإنما نجدها قد تجاوزتها إلى الأصول المشرقية التي لا بد منها للاندلسي متعلم أو متأدب نلاحظ ذلك في إشارات ونصوص واضحة في آثار أبي المغيرة تدل على مدى اطلاعه على آثار أهل المشرق ومنها رسائله الثرية بصورة خاصة التي يبدو فيها تأثيره بأعلام من أدباء المشرق كالجاحظ وبديع الزمان وغيرهما من الكتاب والشعراء الذين تأثر بهم أبو المغيرة ونسج على منوالهم فضلاً عن محاولة التفوق عليهم . وبهذا نستطيع القول بأن أبا المغيرة لا بد أن يكون قد سلك مسلك غيره من طلبة العلم في التردد على المشايخ المعروفين في عصره حتى استحق وصف أحدهم بقوله : ... الوزير الكاتب من المقدمين في الأدب والشعر والبلاغة ... (١) .

ويصفه آخر بأنه قد ترك تواليف عديدة مع أنه توفي شاباً ... (٢) وإن كان في قوله توفي شاباً — نظر استناداً إلى ما تم ترجيعه من سنة وفاته حيث يفترض أن يكون قد جاوز الستين ولكننا على الرغم من هذه الإشارة الواضحة

(١) جذوة المقتبس / الحميدي ت ٦٥٨ ص ٢٩٢ وكذلك الصلة ص ٣٨٠ .

(٢) ينظر المغرب في حل المغرب / ابن سيد ١٠ ص ٣٥٧ ت ٢٥٤ .

الصريحة من ابن سعيد حول اثار ابي المغيرة لا نكاد نجد منها شيئاً في ميدان التأليف والتصنيف وان كان ذلك لا يبرر انكار وجودها في عصره والعصور التالية ثم قدمت فيما فتد من تراث الأندلس الذي لا يتدر بثمن ومما يدل على ذلك شعر ابي المغيرة ونثره اللذين يدلان على مقدرته ومواهبه في ميادين العلم والأدب وسعة الثقافة التي احاط بجوانبها وانعكست في آثاره ولعل مما يؤكد ذلك أيضاً ان أديبنا عاش فترة الفتنة كلها وشهد أحداثها وتقلباتها فكان من المتوقع ان يفقد الكثير من اثاره ومؤلفاته التي سبقت الاشارة اليها وهو لا ينفرد بهذه الظاهرة وانما يشاركه كثيرون من اعلام الأندلس ممن ضاع كثير من آثارهم في خضم الثورات والأضطرابات التي تمخضت عنها الفتنة وأحداثها الجسيمة الخطيرة .

شخصيته ومكانته

اذا كانت المعلومات والأخبار عن نشأة أبي المغيرة وطلبة العلم قليلة لانفي بالغرض ، فان المعلومات والأخبار عن شخصيته أقل من ذلك إلى حد الندرة غير ان المتتبع لنصوص ابي المغيرة النثرية والشعرية يستطيع ان يتصور ملامح شخصيته وسمات مكانته في المجتمع الأندلسي أوائل القرن الخامس مستعيناً بما ذكره ابن بسام في سياق تعريفه بابي المغيرة حين قال :

« ... كان أبو المغيرة هذا طلبة الحسام وواسطة النظام وفارس ميدان البيان وذات صدر الزمان حل من زهر الفضائل محل السنان من العامل والزبرقان من المنازل وتمت به غرر المحامد ، تمام الصلوات بالعوائد ، ومجهول اللغة بمعلوم الشواهد ... » (١) .

ثم يؤشر ابن بسام على جملة من ملامح شخصية أبي المغيرة من حيث مآلاتها من الأمزجة والطباع فيقول : « ... وشجر الأمر بينه وبين الفقيه ابي محمد بن حزم ابن عمه لانه كان أئبه من ابي محمد في حضور شاهده

(١) المغيرة في محاسن اهل الجزيرة / ابن بسام ق ١٠١ . ص ١٣٢ .

وذكاء خاطره وحسن هيئته ، وبراعة ظرفه وجودة أدبه ، وهو كان في زمانه في الجد والهزل صاحب اللواء في مجالس الأمراء .. (١) .

ولا يخفى على المتأمل في هذه العبارات أن يلاحظ دلالتها على ملامح شخصية أبي المغيرة التي يمكن تحديدها في الاعتداد بالنفس والاعجاب بمواهبها وقابلياتها مع ميل إلى الجدل والحوار وحدة في الطبع وذكاء وفطنة وصبر على مجادلة الخصوم ومحاولة النيل منهم والتفوق عليهم مهما كانت شهرتهم ومهما بلغوا من المنزلة العلمية ، وبكفي ان نشير هنا إلى منازلة أبي المغيرة لابن عمه الفقيه أبي محمد بن حزم وهو العالم المؤرخ الأديب المعروف المشهور في عصره والعصور التالية من خلال مؤلفاته وجهوده العلمية والأدبية .

وإلى جانب هذا كله فان النصوص النثرية والشعرية التي وصلت إلينا من آثار أبي المغيرة تدل بوضوح على علاقاته وصفاته والوان تصرفاته ونوازعه حتى يمكننا القول بأنها تتحدد في إطارين بارزين هما :

جانب العلاقة مع الأمراء وتولي أبي المغيرة وظيفة الوزارة والكتابة على عادة الأمراء الأندلسيين الذين يتخذون لهم غالباً كتاباً يطلقون عليهم لقب الوزارة وجانب العلاقات الوثيقة بأدباء عصره المشهورين وفي مقدمتهم أبو عامر بن شهيد الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٤٢٦ هـ وابن عمه ابن حزم وآخرون . (٢)

أما جانب العلاقة بالأمراء وممارسة الكتابة لهم فان الأخبار تحدثنا عن ذلك مبتدئة بالمنصور بن أبي عامر وولديه من بعده ثم علاقته بعبد الرحمن المستظهر والمنذر ويحيى ابني هود صاحب سرقسطة وغيرهم . (٣)

ونقرأ في شعر أبي المغيرة اشارات إلى جوانب من هذه العلاقة وانشاد الشعر بين يدي المنصور واعجاب الأخير به على الرغم من سخفه عليه قبل

(١) المصدر نفسه ص ١٢٣ .

(٢) ينظر : طبع الاناس / الفتح ص ٣٨٨ في تصوير العلاقة بين أبي المغيرة وابن شهيد

(٣) ينظر فتح الطيب / المقرئ ص ٢٠ ص ١٤٩ .

فذلك ، وقد أورد المقرري صورة من ذلك المجلس وما حصل فيه مع نصوص
شعرية دالة عليه (١) .

أما ابن بسام فانه يؤكد على جانب العلاقة بالأمير عبد الرحمن بن هشام
المستظهر فيقول : « ... ودولة عبد الرحمن بن هشام المستظهر المتقدمة الذكر
كانت مهتبه الذي منه عصف ، ومجاله الأول الذي فيه تصرف ، القى اليه
زمامه وأخدمه أيامه ثم عتب عليه في بعض الأمر فلحق ببلاد الثغر فهناك
تسحب على الدول تسحب الهوى على العذل وامترج بملوك العصر امتزاج
الماء بالخمير ولو طال مداه لم يذكر معه سواه ولا اعترف بتفضيله أحبه
وعده ... » (٢) .

كما ينص ابن بسام نفسه على ممارسة أبي المغيرة وظيفته الكتابة للأمراء
في بلاد الثغر فيما ينقله عن أبي مروان بن حيان فيقول : « ... ولحق ببلاد
الثغر وقد اعتلت طبقته في النظم والنثر ، وكتب عن عدة من الأمراء ونسال
حظا عريضا من دنياهم ... » (٣) .

أما جانب العلاقة بأدباء العصر المشهورين فهناك اشارات كثيرة على ذلك
يمكن من خلالها تصور ملامح شخصية أبي المغيرة كما تلقت النظر إلى
مكانته في أدباء العصر وعلمائه وطبيعة علاقاته بهم سواء أكانت علاقات ود
واحترام ومحبة ووثام أو كانت علاقات تنافر واختلاف وخصام .

وفي ميدان النوع الأول من هذه العلاقة نطالعنا علاقة أبي المغيرة بأديب
فترة الفتنة أبي عامر بن شهيد الكاتب الشاعر اذ تبدو من خلالها قوة الصلة بين
الأديبين وصلات الود التي تربط بينهما : « ... وكان هو وأبو عامر بن شهيد
خليلي صفاء وحليفي وفاء لا ينفصلان في رواح ولا مقيل ولا يفترقان كما لاك
وعقيل ، وكانا في قرطبة رافعي ألوية الصبوة ، وعامري أندية السلوة ، إلى

(١) الفخيرة في محاسن أهل الجزيرة / ابن بسام - ق ١٠١ ص ١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣٢ - ١٣٣ .

ان اتخذ أبو عامر في حباله الردى وعلق ، وغدا رهنه فيها وعلق فانفرد أبو المغيرة بذلك الميدان واسترد من سبقه ما فاتته منذ زمان ، فلم يذكر له مع أبي عامر حسنة ولاسرت له فقرة مستحسنة لتعذر ذلك وامتناعه لشغوف أبي عامر وامتداد باعه ... (١) . ولاشك ان هذا النص واضح الدلالة على أمرين مهمين يتعلقان بشخصية أبي المغيرة ومكانته : أما أولهما فيبدو فسي صلته القوية بمشاهير عصره ومنهم ابن شهيد . وأما ثانيهما فيبدو في تألقه وذبوع شهرته بعد وفاة أبي عامر لتفوق الأخير عليه في ميادين الأدب شعراً ونثراً .. هذا إلى جانب علاقته بالأمراء والأدباء المعاصرين له .

أما في ميدان النوع الثاني من علاقته وهو المتمثل في العلاقات السليبية القائمة على الاختلاف والتناحر والخصام والتنافر ، فيظهر بوضوح في علاقته بابن عمه أبي محمد بن حزم الفقيه الأديب العالم صاحب المؤلفات الكثيرة والمصنفات المهمة : « وشجر الأمر بينه وبين الفقيه أبي محمد بن حزم ابن عمه وجرت بينهما هنات ظهر عليه فيها أبو المغيرة وبكته حتى أسكته لأفـهـه كان ابنه من أبي محمد في حضور شاهده ، وذكاء خاطره وحسن هيئـتـه وبراعة ظرفه وجودة أدبه ... » (٢) ، وإذا كانت عبارات ابن بسام تشير صراحة إلى تفوق أبي المغيرة على ابن عمه فيما عده من صفات فان ذلك بحاجة إلى تأمل ونظر ومراجعة ، نظراً لأن هذه الأوصاف يصلح إطلاقها على أبي محمد قبل غيره فهو المؤرخ العالم الأديب صاحب الآثار الكثيرة المتنوعة دون الاقتصار على الادب ، علماً بأنه كان أديباً شاعراً إلى جانب ممارسته التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة ، حتى ان تلميذه أبا عبد الله الحميدي ذكر ان له ديوان شعر في عشرين جزءاً . (٣) هذا إلى جانب كذايات نثرية في موضوعات شتى ومنها ما راجع به ابا المغيرة في واحدة من رسائله ، على ان ابن بسام يعترف - في ترجمته لأبي محمد - بفضل

(١) مطمح الانفس ومسرح التأني / ابن خنّان ص ١٥٤ وينظر النسخ ٢٨ ص ١٤٩ .

(٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة / ابن بسام ق ١٢١ ص ١٣٧ .

(٣) انظر : جذوة المقتبس / الحميدي ص ٢٩٢ ت ٦٥٨ .

ومكانته ويسرد العديد من سمات شخصيته وجوانب معرفته في علوم الشريعة والتاريخ والفلسفة والأخلاق والتراجم والسير ، وكان مما قاله فيه « ... وكان أبو محمد حامل لواء فنون من حديث وفقه وجدل ونسب وما يتعلق بأذيتال الأدب مع المشاركة في كثير من انواع التعاليم القديمة في المنطق والفلسفة وله في بعض تلك الفنون كتب كثيرة ... » (١) . وهكذا تأتي اشارات ابن بسام دالة على فضل الرجلين وتقديرهما والاعتراف لابني محمد بالسبق في ميدان التأليف في معارف شتى كما تنص في الوقت نفسه على مكانة أبي المغيرة وفضله بين اقرانه على الرغم من قلة ما اثر عنه من اثار علمية وأدبية .

أبو المغيرة بن حزم نائراً

يبدو أبو المغيرة واحداً من أصحاب الملكات المزدوجة الذين كثروا في الأندلس في عصره إبان القرن الخامس ثم ازدادت وانتشرت فيما تلا عصره على امتداد القرن الخامس والفترات التالية ، وكان من معاصريه من أصحاب هذه الملكات المزدوجة ابن شهيد الأندلسي الذي عرف بنظم الشعر وكتابة النثر والرسائل وكانت رسائله - التوابع والزوابع - من أهم أسباب شهرته في أوساط الأدب . ثم كان هناك أدباء من ذوي الملكات المزدوجة يعد أبو المغيرة وابن شهيد مثل ابن زيدون صاحب الأشعار المعروفة والرسائل الذائعة ومنها رسائله الجدية والهزلية .. وهكذا تبدلنا ظاهرة أصحاب الملكات المزدوجة من سمات الأدب الأندلسي في القرن الخامس خاصة والقرون التالية بصورة عامة . ولقد ظهرت هذه الملكة المزدوجة لتؤكد حرص الأدباء على الجمع بين فني المنظوم والمنثور والتفوق في كليهما دون أن تطغى احدهما على الأخرى وبهذا عرفت آثار أولئك الأدباء الجمع بين الفنين سواء بطريق ممارسة كل منهما بصورة مستقلة أو بالجمع بينهما في الرسالة الواحدة ،

(١) الأخيرة من ثلاث اهل الجزيرة ق ١٠١ ص ١٦٧ - ١٧٥ / ترجمة ابن المغيرة .

وهكذا يكون أبو المغيرة ظاهرة بدهية متوقعة في عصره وصورة معبرة عن هذا العصر من الوجهة الأدبية والثقافية .

ولا يبدو غريباً بعد هذا أن يؤكّد المؤرخون والأدباء على جانب الشر عند أبي المغيرة والنظر إليه على أنه صورة معبرة عن الحياة الأدبية والثقافية أهلته أن يكون وزيراً كاتباً لدى أمراء عديدين طيلة حياته الأدبية ، وتمكن فسي الوقت نفسه أن يصارع الأعلام المشهورين في ميادين الأدب والعلم ومناقشتهم والرد عليهم وهم يعترفون بفضلهم ويقرون بمكانته من خلال أجوبتهم والوان حوارهم الثري مئة ولعل من دلائل ذلك ما عرضه ابن بسام في مفتتح تعريفه بأبي المغيرة من رسائل في موضوعات شتى قبل أن يأتي إلى الحديث عن شعره وإيراد نصوص مختارة منه وقد وضع ذلك تحت عنوان : « جملة من رسائله في أو صاف شتى » (١) بعد أن ترجم له ووصفه بأوصاف البيان والبلاغة والنباهة والفطنة والذكاء والعلم ولكن ابن بسام — على عادته — يستطرد خلال النماذج الثرية إلى ذكر جملة من المعاني التي سبق إليها الشعراء المشريقون وقدر ابن بسام أن أبا المغيرة قد أخذها عنهم . مع فكر جانب من علاقة أبي المغيرة بأبن عمه أبي محمد بن حزم وغيره ممن كانت له صلة أدبية وثقافية بهم وبرز على شكل حوار أو نقاش ثري متبادل يتراوح بين الهدوء والثورة ويتأرجح بين سمات المودة والحب والتقدير وسمات العداوة والبغض والكراهية .

وتجدر الإشارة أخيراً إلى أن ابن بسام يكاد ينفرد بذكر النصوص الثرية المختلفة مما يجعلنا نعتده أساساً في عرض النصوص ودراستها كما نرجع إليه دائماً في توثيق هذه النصوص ، في حين لانجد المصادر الأخرى عينيت بها عناية ابن بسام أو أوردت القدر الذي أورده .

(١) الفخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ١٢١ ص ١٢٣ - ١٦٦ .

موضوعات نثر أبي المغيرة

أورد ابن بسام ما يربو على عشرين رسالة نثرية طويلة وقصيرة فسي موضوعات مختلفة يأتي في مقدمتها موضوع الأخوانيات وهي الرسائل المتبادلة بين أبي المغيرة وعدد من انداده الأدباء المعاصرين له ثم تأتي الموضوعات الأخرى في وصف الطبيعة والموضوعات الاجتماعية وغيرها مما له صلة بالحياة والعلم والأدب . ومما يلفت النظر في هذه الموضوعات خلوها تقريباً من الرسائل الديوانية المستقلة المعبرة عن شؤون الديوان الأموي الأندلسي — كما عهدناه — في التولية والعزل والنقل والتعيين والتهنئة والتعازي وأمور السياسة الأخرى ، وذلك على الرغم من وجود العلاقة الوثيقة — غالباً — بين أبي المغيرة وعدد غير قليل من الأمراء في فترة الفتن وما قبلها وما بعدها ، مع تأكيد ابن بسام وغيره ممن ترجم له على ممارسته الكتابة لأولئك الأمراء وتسميته وزيراً لعدد منهم ...

ولعل من أسباب ذلك إهمال المؤرخين ومنهم ابن بسام لتلك النصوص المتضمنة للمعاني الديوانية لسبب عام يعود — عند ابن بسام — إلى حرصه على الاختصار والاختيار الذي يشمل عدد الرسائل والسطور التي يختارها لكل منها .

وربما كانت هناك أسباب أخرى تعود إلى مضامين القطع المفضلة حرصاً على أبي المغيرة أو غيره ممن تخصصهم ، أو تعود إلى المخاطبين بها من غير الأدباء كالأمراء والقواد والوزراء ، مما قد يكون مهماً في وقته ولم يقف ابن بسام على أثره . ولكن الشيء الذي يطمئن الباحث إلى ترجيحه — على الرغم مما سبق — أن هذه الصور الأدبية النثرية مهما كانت موضوعاتها قليلة موجزة فإنها ليست قاصرة عن التعبير عن شخصية أبي المغيرة في جوانبها المتعددة علماً وأدباً وثقافة وطبعاً وخلقاً وسلوكاً ، وهي في الوقت نفسه لاتخلو من إشارات ولمحات تحدد سمات الحياة الاجتماعية والسياسية

والاقتصادية للمجتمع الأندلسي في عصر أبي المغيرة .

أما الأساس الذي سيتم تناول موضوعات النشر على وفقه فهو بصورة عامة يعتمد أهمية الموضوع وصلته بالحياة والقدر المتوفر من الصور الثرية التسمي تعبر عنه وبهذا سيكون الموضوع الأول : الرسائل الأخوانية - كما سبقت الإشارة ثم رسائل المراجعات والمجاوبات يتلوها عرض الرسائل الاجتماعية والرسائل المجونية ثم رسائل وصف الطبيعة . وذلك على منهج تقديم الأهم ثم المهم كما ونوعاً مع التأكيد مرة أخرى على أن هذا كله إنما يكون في نطاق النصوص المتوفرة بين أيدينا .

الرسائل الأخوانية

ونقصد بها تلك الرسائل التي تعالج موضوعات تتصل مباشرة بالأصدقاء والأنداد ممن له صلة بالأدب والثقافة والعلم أو له صلة أخوة وصداقة مجردة بالأدب . أو كانت الصلتان مجتمعتين فيه مما يجعل الصلة بين الأديبين أقوى وأمتن من غيرها . والنظر في مجموع رسائل أبي المغيرة يبدو له أن هذا النوع يشكل جزءاً كبيراً منها وذلك عبر ما أورده ابن بسام من النماذج والصور في القسم الأول من سفره القيم ، ونشير بين يدي عرض نماذج هذا النوع إلى أن هذا الفن الشرقي غرض تقليدي معروف في أوساط أدباء النثر الفني في المشرق والأندلس وهو تعبير صادق عن طبيعة العلاقات بين الأترب والأنداد من أهل العلم والأدب سواء كانت هذه العلاقات أيجابية يجلبها الحب والصفاء وتظلها المودة والوفاء أو كانت سلبية تعبر عن ضعف العلاقة بين أبي المغيرة وعدد من معاصريه إلى درجة قد تحمل كلا منهما على مفاجاة أخيه ومعاداته حسداً وغيره أو انتقاماً ورداً على إساءة أو تقصير ... أو دفاعاً عن النفس أو دوافع أخرى من مصلحة دنيوية أو اجتماعية أو غيرها مما يؤثر في نفسية الأديب فيثير مشاعره ويفجر لسانه وقلمه بعبارات لازعة أو انتقاد شديداً

ويمكن للباحث المتأمل في رسائل أبي المغيرة في هذا الموضوع ان يلاحظ
تعبيرها عن شخصية أبي المغيرة ونفسيته التي تبدو متسمة بالحدة والشدة
غالباً ويلاحظ الباحث كذلك ان هذه الرسائل يخلو كثير منها من أسماء
الذين خطبوا بها ، مما يدفع إلى الظن بأن أبا المغيرة كان يحرص على اغفال
الأسماء لما يتوقعه من المحاذير والنتائج السلبية ، ومع ذلك فإن هذا الاغفال قد
يكون سببه أحياناً ابن بسام نفسه في اقتباسه النصوص أو انفصول - كما
يسمى - من تلك الرسائل متجاوزاً الأسماء اختصاراً وتجنباً للآثار والاساءة
إلى المعنيين بها .

ومن النصوص الواردة في هذا الموضوع ما أورده ابن بسام تحت عنوان
«وله» ... قد أغنى الله ما يشاء بتمكن بنيانه ، وثبات أركانه عن تعاطي
القول في تقيضه ووصفه ، ورأيت ما هزرت مني في خدمة ارادتك ، ماضي
الحز لين المهز ، لو صادف مضرراً ووقع على محز ، وإذا احتجت إلى دليل
على قصدي في تأني أوطارك وما ربك ، وحظي شعب انحائك ومذاهيك . (١)
فهذه السطور القليلة من النص قد أغفلت الاسم وان كانت عباراتها تدل
على أنها موجهة إلى شخصية ذات شأن في السلطان أو العلم أو المنزلة الاجتماعية
وهي جملة عبارات تذكر المخاطب باخلاصه له وجهوده في خدمته على
الرغم من أن أبا المغيرة لم يجد تقديرأ مناسباً أو تجاوباً نصفاً لموقفه هو كما
نفهم من عباراته .

ومن هذه الرسائل ما وجهه أبو المغيرة إلى أصدقائه وقد نص فيه على رباط
الأخوة دون أن يذكر اسم المخاطب ، بل يكتفي بالإشارة إليه بلفظ « فلان »
فيقول : (... وأما فلان فالكلام وان طال فيه قصير والواصف دون بلوغ
مداه حسير ، لله أبوه ، صحة أخاء ومحض وفاء ، وحسبك أنه في الرعيلى
الأول من اخواني وفي الصدر المقدم ممن أثق به من أهل زمانى ، وان كان
فيهم ذو السر والفضل والنباهة والنبلى :

(١) الذخيرة / ابن بسام - القسم الأول - المجلد الأول ص ١٥٨ .

وكل له فضله والحجول يوم التسفاضل دون الغرر (١)

فهذه السطور القليلة تعبر عن العلاقة الايجابية القائمة على المودة والأخاء والاعتراف بالفضل والثناء على أهله مع عدم اغفال وجود الخير عند الناس الآخرين وكل ذلك من أدلة هدوء نفس أبي المغيرة واطمئنانه في تلك اللحظات ، وهي حالة قلما نجدها في رسائله الأخرى ، ولعل ذلك ممسكاً يذكر بمكانة المخاطب وفضله وعلو منزلته في وجوه كثيرة .

ومما يسلك في هذا النوع من الرسائل الأخوانية سطور وضعها ابن بسام تحت عنوان « وله من أخرى » يطلب فيها أبو المغيرة كتاباً من صديق لا يذكر اسمه ، وإن كانت بداية السطور تدل على أنها مجترأة فعلاً وإن مقدمتها ربما كانت تحوي أسم المخاطب ، غير أن ابن بسام — على عادته — اقتطع هذا النص مغفلاً مقدمته وما قد تحويه من اشارات أو أسماء أو دلالات أخرى ، يقول فيها :

« .. وإن رأيت تأنيسي بكتاب أجتلي فيه وجوه البدور ، وجواهر البخور ودرر الثغور ، واجتني به ثمر السرور ، وارتع منه في رياض العلوم ما بين منثور ومنظوم ، نفست من خناق مشتاق كئيب ، وأنست من وحشة منفرد غريب ، بحيث لا أخ كريم ولا ولي حميم ، فقد صرت ولا احميل على الأثر بعد العين كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامسي بأرض نخلة الا كمقام المسيح بين اليهود .. ٢٥٠ »

وفي هذه العبارات نفهم جملة من الأمور ، لعل في مقدمتها مرور أبي المغيرة بفترة معاناة وشدة لم يشأ الافصح عنها ؛ هل هي من فترة سجنه ؟ أو هي غربة عن الوطن والأهل والأحبة أشبه ما تكون بالسجن أو النفي وما تؤدي اليه من شعور مرير بالغربة والوحشة ؟ أم أنها شعور بالاجباط بعد نقض اليد من الأصحاب والأوفياء ؟ .

(١) الذخيرة / ق ١٢١ من ١٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٩ .

على ان الرسالة تؤكد في جانب آخر من عباراتها على أهمية الكتاب والحاجة اليه في الشدة كما تشتد الحاجة اليه في الرخاء فهو الأنيس في الوحدة والناصح في الخلوة والمعين بعد الله تعالى على الغربة ؛ وفي هذا كله أدلة واضحة على دور الكتاب في حياة الانسان وحياة أبي المغيرة بدسورة خاصة وحرصه على ان يشغل نفسه ووقته بصاحب لا يمل مهما طالّت مرافقته واشتد اقبال الانسان عليه وملازمته له . ومن الرسائل الدالة على ايجابية الصلة بين أبي المغيرة وأقرانه ، الناطقة بالوفاء والمودة والحب ؛ رسالة تعد من الرسائل القليلة التي يشير فيها ابن بسام إلى اسم المخاطب بها ويضعها تحت عنوان : « وله من أخرى يخاطب بها عن نفسه الفقيه أبا عمرا بن عبد البر » (١) ، وفيها يعرض أبو المغيرة جوانب مشرقة من علاقته بالفقيه ومنها المودة والوفاء والمحبة والتقدير والصفاء ، والتعبير عن ألم الفراق وشدته على النفس حتى انها اعتلت مع اعتلال البدن وتغير الحال ، حتى اذا حصل اللقاء ثارت مكامن الشوق أعنف مما كانت عليه قبله واشتدت الالهفة بقوة واندفاع ويستشهد خلال ذلك ببيت شعر للمتنبي فيقول بعد العنوان وذكر اسم المخاطب :

« ... ولقد بقيت حالي بعدك مريضة وعين آمالى مغضوضة ، وأيدي انسي مقبوضة وجيوش صبري عنك منفضوضة ، فقد كان ذلك البعد الطويل أحدث بعض السلوان وأتى بما في طبيعة الانسان من النسيان ؛ وان كان هذا القول الايقال على الاطلاق بل على الاضافة لما في الحال بهديث الافتراق ، حتى إذا وقع اللقاء وتأجج من ذلك الألتياخ خامده وثار رأكده وسال مجامده ، وكانت حالنا كما قال أبو الطيب :

افترقنا حسولا فلمسا التقينا... كان تسليمه علي وداعا (٢)

(١) ابو صر : يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر النعمري ، ابو عمر فقيه حافظ مكبر بالقرارات وبالاخلاق في الفقه وبعلم المديث والرجال قديم السماع ... مولده (٣٦٢ - ٣٦٠) (٢٦٠) الجذوة ص ٣٦٦

والصلة لابن بشكوان ص ٣٧٦ ، الذخيرة ، في مواطن عديدة .

(٢) الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق ١ م ١ ص ١٦٠ .

ومن الرسائل الدالة على ايجابية الصلة بين أبي المغيرة وأترابه ، رسالة أوردها ابن بسام تحت عنوان « فصل من رقعة شفاعة » . يعرض فيها أبو المغيرة تمهيدا للدخول في الحديث عن شخص لا يذكر اسمه ولكنه يكتسبه بأبي الربيع مشيراً إلى حسن خلقه ودماثة طبعه وبيان لسانه وقدرته على الجمع بين فني المنظوم والمنثور ببراعة واجادة واحسان فيقول : « ... إذا شرب روض الشكر من حوض البر ، أطلع من الزهر ما يحمل مسك الطور ، وتنفس عن نسيم يشفي حرارة القلوب الهيم ، وبحسب القائل يكون المقال ، وعلى قدر الجائل يتسع المجال ، وأبو الربيع من علم لسانه إن قال ، وبيانه قصير أو طال ، وأنه أشد بناء الكلام حرصاً إذا وجد أجراً وجصاً وأعظم جيساده نهائناً إذا وجد ميداناً متفائلاً فمن أثقته برأ طوقه شكراً ومن خلع عليه ثياب الفضل من طراز الاكرام ، نزع اليه بجياد الحمى من مربوط الكلام ... » (١) .

ولكن أبا المغيرة لا يستمر على نهجه هذا في ذكر محاسن الرجل وتعبده مآثره وإنما يتحول إلى الحديث عن تغير الرجل عما كان عليه ، وأول دلائل ذلك تركه الشعر ثم تخليه عن الأدب جملة حتى صار عالة عليه وغدا غريباً عنه ، ونزع إلى العزلة المفضية إلى نوع تصوف وزهد وبهذا يكون قد نفّض يديه من الأدب وأهله وأيقن بعدم جدوى السير في طريقه : « ... حتى إذا رأى تلك الأسباب رثاءً وعابن جرم وسائلها انكاثاً طلق عرس الشعر ثلاثاً وصار لا يرى نجعة الأدب ولو أوطأته على أرض الذهب فمن مماء أديباً فقد تسلقه ، أو سمه شاعراً فقد أبطل حقه ، حتى إذا لقي من كريم صوناً وعلى ما يحاوله عوناً ، ذكر فشكر ثناء كالزهر تحت انداء السحر ، وأمسك من الأدب على هذا الذناب ، ولو لا أن يسر بهذا القدر ذا قدر لصدق الحملية وسماها من صدره جملة ونزع إلى تصوف يحمى فيه رأيه .. » (٢) .

(١) المصدر نفسه ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٢) الذخيرة / ابن بسام ق ١٤ ص ١٥٣ .

وفي هذه السطور نقرأ عبارات تدل على هدوء المزاج والاحتكام إلى العقل والروية مع نفس نقدي لا يخلو من عتب رقيق أو لوم رقيق على ترك الشعر واعتزاله على الرغم من كل الأسباب التي قد تكون وراء هذا الترك كما ان العبارات تدل كذلك على ان المخاطب بها قد لجأ بعد للشعر إلى الشر ليصوغ به شكره لمن أحسن اليه بعون أو تأييد ، وفضلا عن ذلك فقد اتسم التعبير بالمباشرة وقلة ممارسة الزخرفة لللفظة التي قد تلاحظ في رسائله بعامة مهمسا اختلفت موضوعاتها وتعددت أغراضها .

ومما يعبر عن العلاقة السلبية بين أبي المغيرة وبعض أقرانه ويتدرج فسي الرسائل الأخوانية ، رسالة يسير فيها على طريق الازدراء والتهكم مستعيناً بالأمثلة المزرية والعبارات المؤثرة مع ضرب الأمثال وذكر أسماء لازمة لها مع تجنب ذكر اسم المخاطب المعني بها ، وقد جاءت أيضاً تحت عنوان : « وله من أخرى يقول : » ... بانعكاس الزمان ، انعكست أمثال البيان ، كما يروي في خبر الفتى المدعي للكتابة عند عمرو بن مسعدة ؛ أنه عاياه بكتاب صاحب البريد بخبر بكرة ولدت غلاماً ، فأنشأ خطبة مفتتحها : الحمد لله خالق الأنعام في بطون الأنعام ، فجذب الرقعة من يده وبالغ في اجتنال صفده ، وإذا تأملت انقلاب الزمان وما وقع لي مع فلان انقلبت الخطبة فصارت : الحمد لله خالق الأنعام في بطون الأنعام ... » (١) والذي يفهم من هذه السطور أنها مجتزأة من أصل أطول وأكثر تفصيلاً وتوضيحاً وأنها بذلك لا تمثل الرسالة في بدايتها ، إلى جانب كونها تهدف إلى الانتقاص من شخصية يشير اليها الكاتب بنلان ويربط وجودها بتغير الزمان وانقلاب الموازين ، ثم يضرب المثل في قصص مشرق لا يبعد عن الأدب ان لم يكن من صميم بنائه ؛ فعمر بن مسعدة واحد من الكتاب المشهورين في المشرق في العصر العباسي ؛ ولعل أبا المغيرة أراد ان يعلم قارئ رسالته أنه مطلع على أحوال المشرق في الأدب وعلى صعيد الكتاب بصورة خاصة .

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ - ١٦١ .

والرسالة بعد ذلك تشير إلى جانب من أحوال المجتمع الأندلسي في عصره حين قوى نفوذ اليهود بشغلهم بعض المناصب في الدولة واستغلالهم مواقعهم في التدخل في شئون أخرى لا تعنيهم فضلاً عن كيدهم المنيث من حقدهم وعدائهم للإسلام والمسلمين فيقول : ... وأبدأ بحديث اليهودي موصـل كتابك : دخل الحضرة عقب جولة كانت لي مع ابن مخامس - حشر الله كليهما مع صاحبه - فوالله لا أعلم حال من منهما أضعف وأظلم ؛ أحوال اليهودي بمضادة الدين أم حال هذا المسلم ؟ توافى وقد كشفت عورائه وما زالت مكشوفة ، وعرفت سوائه وما زالت معروفة ، أخباراً عنه وتحذيراً منه ، وإعلاماً لما يستره ذيله ويشتمل عليه من قبائح يملها العار ويكتبها الليل والنهار ... (١) .

ثم يوغل أبو المغيرة في الفقرة التالية في وصف الشخص بصفات سيئة تجعله مثلاً في الزرابة وعلماً على ضحالة التفكير وسوء الخلق مع غرور وتكبر وطيش لا يتناسب مع قلة العلم وسوء الفهم وشدة الغباء وضمور المكانسة وضعف الصلة بأفراد مجتمعه .

وهي على كل حال دليل واضح على العلاقة التي تربط بين ابـي المغيرة ومعاصريه في جانبها السلبي المنطوي على العداء والبغض إلى جانب كونها تدل على وضع اليهود في ظل دولة الأندلس في هذه الفترة وما كانت جهودهم تهدف إليه في تقويض دعائم سلطان المسلمين في هذه البقعة حتى تم لهم ولغيرهم من مساعديهم ما أرادوا في القرون التالية وكانت النهاية المؤلمة والطعنة النجلاء للحضارة الإسلامية خاصة والحضارة الإنسانية بعامـة متمثلة في ضياع التراث الكبير الضخم من المؤلفات في شتى العلوم والفنون وألوان المعرفة والثقافة التي ظلت رديحاً طويلاً امتد عدة قرون تشع نور التقدم والعمران والأزدهار في ميادين الحياة جميعها إلى أوروبا وإلى العالم أجمع في عصور الظلام والاقطاع والرق والتأخر . وذلك ما شهد به ويشهد دائماً .

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١٢١ ص ١٦٠/١٦١ .

المنصفون من المؤرخين والباحثين مسلمين وغير مسلمين وفي مقدمتهم عدد من المستشرقين من أمثال غوستاف لوبون في كتابه « حضارة العرب » وفون جروينباوم في كتابه : « الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية » والمستشرقية الألمانية : سنجرید هونكة في كتابها المشهور « شمس العرب تشرق على أوربا » وغيرها من المؤلفات التي لا تكاد تحصى في هذا الباب ، ولكنها مشهورة معروفة لدى المعنيين بدراسة هذه الحضارة من خلال ما تبقى من تراثها العلمي والأدبي والعمراني وغير ذلك .

رسائل المراجعات والمجابات

يأتي هذا النوع من الرسائل في مقدمة ما يعرضه ابن بسام من صور نشر أبي الغيرة ، مبتدئاً برسالة كتبها أبو الغيرة ردّاً على رسالة لابي علي الحسن ابن الريب (١) كان الأخير قد وجهها إلى أبي الغيرة يعاتب أهل الأندلس - من خلال خطابه لابي الغيرة - على تقصيرهم في تسجيل مآثر علمائهم وأدبائهم مع كثرة هؤلاء العلماء ووفور حظوظهم في ميادين التأليف والتصنيف في نواحي العلوم والآداب والفنون المختلفة المتنوعة مما أدى إلى ان يتصدر محافل الأندلس من قل علمهم وتصاغت في ميادين التأليف جهودهم فيقول ابن الريب « اني فكرت في بلدكم أهل الأندلس إذ كان قرارة كل فضل ومقصد كل طرفة ومورد كل تحفة ؛ إن بارت تجارة أو صناعة فاليكم تجلب ، وإن كسدت بضاعة فعندكم تنفق ، مع كثرة علمائه ووفور أدبائه وجلالة ملوكه ومحبتهم للعلم وأهله ورفعهم من رفعة أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب يقدمون من قدمته شجاعته وعظمت في الحروب مكانته فشجع عندكم بذلك الجبان وأقدم الهيسان ونبيه الخامل » (٢) .

ثم يشتد في لومه علماء الأندلس بقعودهم عن تسجيل مآثرهم وتصنيف

(١) أبو علي الحسن بن الريب الحسن بن محمد بن أحمد بن الريب التميمي القيرواني . ولم يزد صاحب النسخ على هذا في التعريف به / ينظر نصح الطيب - ص ١٥٢ .

(٢) الأخيرة / ابن بسام ق ١٠١ ص ١٣٣ - ١٣٤ .

ولا تنائي الديار والمنازل بتداح في الأذمة والرسائل ، فالكتاب عوض عين الكلام والتواصل بالنفوس لا بالأجسام وما زلت أنتسم ذكرك فاترسم قدرك واسمع خبرك» (١) وتتوالى عبارات أبي المغيرة على هذا النهج في التعبير عن حبه وتقديره لأبي علي . وشكره على مراسلته والبدء باستئناف الصلة بينهما المتحايين من أهل الأدب والعلم فيما يشكل مقدمة وتوطئة بين يدي الرد على مضمون الرسالة وهدفها الأساس ويؤكد هذا ما يفهم من الفترة التالية التي توحى بأن أبا المغيرة سيرد على الرسالة بالتفصيل مع الشرح الوافي والتأكيد على مناقشة كل مسألة والرد على كل مثلبة لتبرئة أهل الأندلس ودفع التقصير عنهم في حق أنفسهم وبلدهم فيقول : « فأول ما قدمت في كتابك ما يقدمه ذوالفضل والنبيل في الثناء على بلدنا وأهله ووضعت الجميع على اختلاف طبقاتهم . وتباين درجاتهم من أرائهم التي نحوها ، وعلومهم التي وعوها بأوفر الأقسام واحتلالهم في ذلك بالغارب والسنام ؛ حتى عارض الجيـسان الأسد » (٢) ولكن أبا المغيرة يأتي بعد هذه العبارات الودية إلى الرد الذي يجنح إلى الشدة في العتاب وأشعار أبي علي بأنه متجن على أهل الأندلس مغفل لجوانب من جهودهم في تسجيل مآثرهم العلمية والأدبية ونستشهد ببعض عباراته الدالة على ذلك :

«... هذا معنى كلامك لم أوردته بألفاظه وإن أصميت اغراضه اشفاقاً من أن افضح كلامي به وأدل على قصور آلي بمجتلبة فأكون كمن جمع بين الشبه والذهب ، وقرن الدر إلى المخشلب ؛ ثم قلت : إن ذكر الفتى عمره الثاني والميت المجهول لا الفاني .. » (٣) ويخلص أبو المغيرة من ذلك إلى تفنيد أقوال أبي علي بأسلوب يتسم بحدة وتأثر وينم عن قدر واضح من الانفعال والغضب تأثراً لقومه وحرصاً على إثبات فضلهم والاشادة بجهودهم مؤيداً قسـوله بشاهد شعري يتألف من بيتين يناسبان المقام ولكن ابن بسام لا يسمح لهذه

(١) المغيرة / ابن بسام ق ١٣٦ ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٧ .

المناقشة بأن تستمر إذ يقطعها بإيراد فقرات أخرى تحت عنوان « وفي فصل منها » يتناول فيه أبو المغيرة التذكير بأن أهل الأندلس معروفون مشهورون عن طريق آثارهم ومصنفاتهم في شتى أنواع العلوم والمعارف والأدب والفنون مستكراً صدور الاتهام لهم من رجل له مكانته العلمية وفضله وإطلاعه ؛ فيقول من جملة ذلك : (ولو لم يعلم لنا خبر ولا ظهر لنا وبقينا لا يعرف مكاننا ، إلا باخراج قسمة الأقاليم لنا ، والحاجة من الجغرافيا إلى ذكر صقعنا لكان عذراً في التخصيص عن اشهار الفضل لائماً ، وإن كان نهجنا لماخذ العلم به واضحاً ، وإن كنت باطلاق قولك قد جاهرنا - وحقك - بالظلم مجاهرة أنا أعجب كيف انتقاد كريم طبعك لها وأعجب أيضاً من نجوعي لك ووقوفني عن الانتصاف منك وأنا أعلم ان عندكم لنا نواليف تطيرون بها وأشهد بتخصيص أربابها ... » (١) على أن أبا المغيرة لا يمضي في الشوط إلى نهايته في شدة العتاب وقوة الانفعال . بل تراه يعود إلى أسلوب اللين والود بالأعراب عن الصلة بينهما بعد أن يمهّد لذلك بمزيد من الاشادة بأهل الأندلس وفضلهم وشدة تعجبه من تجاهل ابن الربيب لذلك كله مع علمه به وإطلاعه عليه فيقول : « ... وإن ودا أعقل لك لساني ولم يجر إلا بما تؤثره وتختاره بنائي ، لود بفضح الروض في حزنه ، برائق حسنه ورضوى في هضبه يثقل وزنه ونوء السماك في هتته بوابل مزنه ، وما هي إلا شيمة قديمة فيكم أهل الجهة الظاهرة أعلامها الباهرة علومها وأفهامها... » (٢).

وفي خضم هذا المديح والتودد إلى أبي علي وقومه في المغرب يقطع علينا ابن بسام تلك الأوصاف وعبارات الثناء وصيغ الاعتراف بفضل المغاربة ومكانتهم وتقدمهم في سياق مناقشة طريقة وموازنة رقيقة ، معتذراً في قطعها الانتقال إلى غيرها بطول الرسالة وخروج أبي المغيرة إلى التطويل والمبالغة في الاحتجاج مشيراً إلى لمحة موجزة من مضامين الفصول الأخرى - وهي المهمة - مما لم يذكره ولم يورد نصوصه فيقول ابن بسام : وخرج أبو

(١) الذخيرة ق ١٢١ ص ١٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

المغيرة في رسالته هذه إلى التلويل وبالغ في الاحتجاج بنصول هي عادلة عن هذه السبيل وختمها بذكر جملة من تواليف أهل الأندلس اضربت عسـن تسميتها لشهرتها ...» (١) .

وبهذا يكون ابن بسام قد أخطأ كثيراً بل تجنى على أهل الأندلس كما حرم غيرهم من معرفة عديد من أسماء المصنفات والتأليف الكثيرة التي نص هو على أن أبا المغيرة قد ذكرها في رسالته وأسهب في سرده موضوعاتها وعرف بها ولو مختصراً .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن الرسالة المذكورة لابي علي ابن الريب قد حظيت برد آخر ربما كان ذا قيمة علمية وأدبية أكبر وأوضح ذلك هو رد أبي محمد بن حزم الفقيه الأديب وقد أورد المقرئ نص رده هذا في سفره القيم المعروف وذلك فيما يبدو نقلاً عن الذخيرة لابن بسام الذي أكد أن الرسالة أصلاً موجهة لابي المغيرة بن حزم ولكن أبا محمد أراد أن يسهم في الانتصاف ببلده واثبات فضله وتقديمه في ميادين الحضارة والعلم والأدب والفن فكانت رسالته فيما ورد فيها أكثر تفصيلاً وأشد تأكيداً على أهل العلم وأثارهم وجهودهم في ميادين شتى .. (٢) .

وذلك قد يعود إلى ابن بسام نفسه الذي ذكر من رسالة أبي محمد أكثر مما يذكر من رسالة أبي المغيرة فيما يبدو ومن هذا النوع أيضاً رسالة كتبها أبو المغيرة رداً على رسالة أخرى تلقاها من الوزير الكاتب أحمد بن عباس ، وكان الأخير قد تلقى كتاباً — كما سماه في رسالته — من أبي المغيرة ببسـد رجل ذي أوصاف معينة أثارت انتباه الكاتب ابن عباس ودفعته إلى كتابسة سطور إلى أبي المغيرة يصف حامل الكتاب ويطنب في ذكر صفاته التي تدعو إلى الزرابة والسخرية ومنها : « ... أنهى إلى كتابك رجل طويل القامة صعل الهمامة بعينه ليانه وعلى أسنانه طرامة ، وفي شاشيته وضارة وفي منطقته لكندة

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣٩ .

(٢) ينظر نفح الطيب ٤٠ ص ١٥٤ نص رسالة ابن حزم .

صعبة وعلى انفه عقدة كالكمة وفي أطواقه شفة يخرج فكاه من أقطارها» (١). ويستمر ابن عباس في رسالته على هذا النهج واصفاً شعوره عند رؤية الرجل وما دار في خاطره حول غرض الرسالة ومتصدد أبي المغيرة في تكليف الرجل الموصوف بحملها مع ما امتاز به من صفات في مظهره وشكله وملبسه وهيئته يورد ابن بسام بعدها نصاً يفهم من عبارته انه جزء من الرسالة التي رد فيها أبو المغيرة على ابن عباس المذكورة وقد وضعها تحت عنوان : (ومن جواب أبي المغيرة عليها) مما يؤكد أنه لم يورد الرسالة من أولها وذلك ما يفهم أيضاً من بداية النص المذكور فهو يقول بعد العنوان :

« .. وأرجع من كتابك إلى ماركض جواد الهزل وشهر سلاحه ونشـ... علمه ، وشب زبون حربه وأوقد وطيس مثته ، بل إلى ما مد بساطه وفرش انماطه وادار كؤوسه وأماط عبوسه وحرك أوتاره ونبه اطياره بل إلى ما أقام لعبه وحرك لبه وأحضر مجونه واشتجر بفنونه وزمر في بوقه وبقر بطـ... دفة ، ورقص إلى ايقاع لحنه وترهب في غير خالقه ، ولم يدع من الحسد رافاً ولا للهزل سبباً الا وتمسك به فهو القائم القاعد والقوي الراشد في وصف الطارئ بالكتاب عليك الذي هذبه الزمان وقاده اليك الخذلان وحمله اليك من أنزع مكان ... » (٢) .

وإذا كانت الرسالة ماضية في هذا النهج من ترادف العبارة والرد والنقض لما ورد في رسالة ابن عباس ؛ فإنها تقترب — كما يبدو من حيث أسلوبها — ومضمونها من هذه الرسالة وإن كانت تختلف عنها في كونها رداً عليها ونقضاً لما ورد فيها بأسلوب هو أسلوبها نفسه فيما اعتمده من الزاوية والسخرية والطنع اللاذع وتسفيه الرأي المقابل واطهاره بمظهر العاجز القاصر عـ... الإدراك والفهم مع انكاره للحقائق الدامغة والحجج القاطعة لغاية في نفسه يريد قضاءها ، وأبو المغيرة في هذا كله لا يكتفي بالرد والنقض وإنما يأتي بما يثبت عكس الأوصاف الواردة التي رآها أو تخيلها ابن عباس في حامل

(١) الأخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ١٢١ ص ٦٤٥ وما بعدها .

(٢) المصدر نفسه ق ١٢١ ص ٦٤٨

رسالته ؛ يقول أبو المغيرة : « ... فعهدي بجبينه كالصحيفة الصقيلة ، وخده كمرآة الغريبة ، وعينه كما ظر صقر طار على مرقب ، يصفدع نظر من خلال طحلب وأنفه كغرار سيف ليس الذي قلده به ، وأثبت حماله في عنقه . واسانه كخراق لأعب ويصوت شيب به نثما ، وزجر أبي عروة همساً خفياً وأثوابه تزرى على اليمن بشرف الصنعة صنائعها ... » (١) . وتتوالى هذه الصفات حتى تكاد تغطي كل ما ورد من الصفات السابقة في رسالة ابن عباس ، غير ان ابن بسام يقطع الرسالة - على عادته - ويتوقف عند نهاية هذه العبارات المفعمة بالاستكثار الساخر والتعجب الهازئ فكيف انقلبت هذه العين وانسلخت من ذلك الزين وصارت أبدة تلهي ، ونادرة تجري لولا ما هياه سعدك وسبيه حدك ، وقد قام النوروز بما وجب عليه ، ولم يوجدك السبيل واليه فارتقب من المهرجان نعتها وانتظر فيه شكلها ، وكنت أسومسك مساجلتي بنظير مقابلتي بمثيلها لكن من لي بمساعدة الزمان بتسطك والأخذ فيه بشرطك (٢)) والتأمل فيما ذكر من نصوص الرسالتين في الذخيرة أو السطور التي وردت هنا يلاحظ أنهما السيران في نهج المقامة من حيث اعتمادهما السخرية والازدراء والفكاهة المعتمدة على التصوير المعبر والتمثيل الهادف إلى تجريد الخصم من كل صفة حسنة ، وذلك بتسفيه رأيه وتفض حجيجه جرياً على عادة أصحاب المقامات في المشرق (٣) . وقد أكد الباحثون في الأدبين المشرقي والأندلسي الصلة بين هذه النصوص وأمثالها وأشاروا إلى اهتمام الأندلسيين بآثار أخوانهم المشاركة الذين يعدون اسانذتهم في ميادين الأدب نثره وشعره ومن الرسائل التي يمكن ان تسلك في المراجعيات والحوار والمجاوبة ثلاثة نصوص أوردها ابن بسام في ذخيرته ؛ اثنان فيهما

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٤٨ - ٦٤٩ .

(٢) الذخيرة / ابن بسام ق ٢١ ص ٦٤٩ .

(٣) ينظر مثلاً : الأدب الأندلسي / مونسو ، وفنون / مصطفى الشكعة ، ص ٥٨٣ - ٥٨٨ . فقد عقد الباحث موازنة بين نص لأبي المغيرة وآخر لإبراهيم الزمان حيث تبدو الصلة بينهما واضحة :

وقد وضعها ابن بسام تحت عنوان « وله من أخرى خاطب بها أبا محمد -
 ابن حزم أثبت منها بعض فصولها فراراً من التطويل وافتتحها ببتي أبي نواس
 الا لا أرى مثل امترائي في رسم توجمه عيني ويرفضه وهمسي
 أنت صورة الأشياء بيني وبينه فظني كلا ظن وعلمي كلا علم
 وقفت - كلاك الله - وأنت عين التمام وعلم الأعلام على كتاب عنوانسه
 باسمك أسمال ، كأنه طلل بال ، فكلما هزرتة هوم وسألته استعجم ، معنى
 كصادي الانسان ولفظ كمنهجات الأكفان ، وأغراض لا يدب فيها سهم
 مقرطس ، وظلام لا وضح فيه لصبح متففس ، وورطانة تميجها الأسماع
 وتحتويها الطباع فاقمت متبلداً وعدت على نفسي وقريحتي متردداً ... » (١).
 وفي هذا المطلاع الذي لا يمثل أول الرسالة وافتتاحها ، يبدو لنا أبو المغيرة
 يهادناً ودوداً أول الأمر فقد وقع بيده كتاب لابي محمد بن حزم لم يسمه ولم
 يذكر عنوانه أو موضوعه ، ولكنه لا يلبث ان يشير اليه بالاطعن الصريح
 والزراية القوية مستهيناً بمضمونه دون ان يوضحه أو يذكر شيئاً عنه ، غير ان
 الرسالة بعموم تعابيرها تدل على تردي العلاقة بين الاثنين وتدفع إلى القول
 بحسد أبي المغيرة ابن عمه أبي محمد وذلك لعجزه عن الوصول شسأوه
 والارتفاع إلى مستواه في ميدان التأليف المنوع والتصنيف الموسع في جوانب
 المعارف والعلوم والاداب .

يبدو هذا واضحاً في عبارات الرسالة وما ورد فيها من أوصاف بيانية
 تهدف إلى السخرية والأزدراء والاستهانة بالعلم وأهله بالتحليل من أهمية
 الكتاب الذي وقع بيده وهو يمتض على هذا النهج عبر سطور رسالته أو
 الأجزاء التي أوردها ابن بسام منها وهي طويلة على الرغم من كونها مقتطعات
 ومختارات من الأصل . يقول أبو المغيرة : تحت عنوان « وفي فصل منها » :
 « ... فاستنصرت من دفع إلى كتابك فتلت : من لي بمثل غاشيتك . »

(١) الذخيرة / ق ١٢١ ص ١٦١ - ١٦٢ .

العصاة وبأشباه الملمين بك في تلك البابة، ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك التي صرت رئيس مدارسهم وكبير أحراسهم، تحدثهم عما كان فيهم من العبر وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفاء والكدر، فتارة عن السامريين والعجل وتارة عن القمل والنمل وطوراتيكهم بحديث التيه ... (١).

وبعد ان يمضي في تعداد مزيد من هذه الأيماءات الساخرة المزرية بالعلم وأهله قاصداً النيل من أبي محمد ومكانته العلمية في التدريس والتعليم فضلاً عن التأليف والتصنيف مستعملاً الأسماء الدالة على احداث وقصص وأحكام في القرآن الكريم بعد هذا كله لا يتف عندما ذهب اليه بأسلوبه الساخر وتذكيره بسابق حياة أبي محمد كما يصورها أو يراها أبو المغيرة بل يحاول ان يختم الرسالة بعبارات أخرى ربما كانت أشد من سابقتها وابعده أثراً في الزايسة والسخرية والحرص على تجريد الخصم من كل حسنة مهما كانت ثابتة معروفة مشهورة فيقول :

«... ومن لك بأن نصبر عليك ونتراني بك، هذا الجواب كما تراه أين الوقت ونتيجة الساعة ونفثة من لا يخرج له الكلام عن طاعة، ومن تشغله عن التناسير كلف السلطان وتثقله أعباء الزمان كاد ينتفش في ظهر كتابك قبل حصوله بيدي :

فقل فيما يجيء عليه ليل ويمضي فسي صياغته نهار
هنالك تظهر الايسات حتسى يقال تناثر الفلك المداز (٢)

ثم يورد ابن بسام رد أبي محمد على هذه الرسالة بكلام موجز دال على ثقة بالنفس وترفع عن الفحش والبذاءة والجهل مع حرص واضح وعناية شديدة بصالة الرحم والعفو عن الظلم والاعراض عن الجاهلين وكان من ذلك ما نقله ابن بسام :

(١) الذخيرة ق ١٢١ ص ١٦٢ .

(٢) نفسه ص ١٦٤ .

فراجعه الفقيه أبو محمد برقعة قال فيها : ((سمعت وأطعت لقوله تعالى
(وأعرض عن الجاهلين) وسلمت وأنقذت لحديثه عليه السلام : « صل
من قطعك وأعف عن ظلمك » ورضيت بقول الحكماء : كفالك انتصارا
ممن تعرض لأذاك اعراضك عنه : وأقول :

تبغ سواي أمسر أيتغني سبابك ان هسواك السباب
فانسي أيت طلاب السفاه وصننت محلي عما يعاب
وقل مسا بسدا لك ملئن بعد ذا وأكثر فان سكوتي جواب (١)

ولكن هذا الأسلوب الحكيم الذي ينطق بالفقه والأدب والحكمة والثقة
بالنفس لا يردع أبا المغيرة ولا يمنعه من الإيفال في الرد القاسي والتعبير الشديد
بألفاظ لا تناسب مقام أبي محمد ولكنها تدل دلالة واضحة على نفسية أبي
المغيرة وحقيقة موقعه من أبيه عمه فهو يفتتح رده بقوله :

(قرأت الرقعة العاقبة فحين استوعبتها أنشدتني)

نحنح زيد وسعل لما رأي وقع الأسفل

فأردت قطعها وترك المراجعة عنها فقالت لي نفس قد عرفت ذكاءها :
تالله لا قطعتها إلا يده ؛ فأثبت على ظهرها ما يكون سبباً لصونها وقلت «...» (٢).
ويورد بعد ذلك ابياتاً-بائية وأخرى رائية تدور في معاني الهجاء الدال على
التأثير البالغ والحق الشديد والرغبة في النيل من الخصم والانتقام منه حتى
ولو كان قريباً عالماً أديباً معروفاً ، فضلاً عن كونه ترباً حميماً وصديقاً
قديماً .

ولا شك ان هذا النهج من أبي المغيرة تعبير عن نفسيته وطبعه المتسم بالحدة
والتحامل المدفوع بقدر غير قليل من الاعتداد بالنفس والغرور بما يملكه
الإنسان من مواهب وقابليات قد تغتر بها نفسه فتري فضلها على كل ذي فضل .

(١) نفسه ص ١٦٤ .

وإلى جانب ذلك فإن موقف أبي المغيرة يعبر عن العلاقة بين الأدباء والطابع الذي يبدو عليها وهو من آثار الفتنة ونتائجها على صعيد الأدب والعلاقة بين الأدباء حتى ولو كان ذلك على حساب علاقة القرابة وصلة الرحم التي يفترض أن تكون قبل غيرها من الصلات .

وأخيراً فإن هذه النماذج في المراجعات والمجاولات تعرض لنا - فيما - تعرضه - صورة لشخصيتين تختلف كل منهما عن الأخرى ، وتعودنا إلى النظر في الموازنة بينهما من حيث امتياز الأولى - شخصية أبي محمد - بالهدوء وضبط النفس والترفع عن الانسياق في مواقف التجني والتجسّؤ بأساليب التقريع والازدراء والسخرية دون تحرج . وامتياز الثانية - شخصية أبي المغيرة - بسمات الحدة والتجني والاندفاع في الحط من مكانة الخصم إلى درجة كبيرة من السخرية والازدراء والامتهان مع عدم الاعتراف بسأي فضل للشخصية الأخرى على الرغم مما حازته في ميادين العلم والأدب والحكمة وغيرها . وهذه النماذج لا يكاد يخلو منها مجتمع عبر التاريخ فضلاً عن مجتمع الأدباء وما يكون في الغالب بينهم من منافرات وغيرة وحسد يوجب نار العداوة والخلاف ويدفع القلم إلى غير هدفه ويوظفه في غير مكانه .

الرسائل الاجتماعية

تقصد بهذا النوع من الرسائل تلك التي تعالج موضوعات ذات صلة أقوى وأوضح من غيرها بالمجتمع وأحواله وعلاقات أفرادها فيما بينهم ، وألوان تعاملهم وتخطبهم ، وهي وإن كانت قريبة من مضامين الرسائل الأخوانية من حيث المعنيون بها وأكثرهم من أصدقاء أبي المغيرة وأنداده - كما تدل على ذلك نصوص العديد منها - إلا إنها تمتاز بتركيزها على الجانب الاجتماعي إلى جانب عنايتها بأحوال المجتمع الأندلسي في عصر أبي المغيرة ذلك العصر الذي كان يعج بالاضطرابات والصراع على السلطة فضلاً عن

التعرض لهجمات الاسبان المغيرين المتربصين بالمسلمين مستغلين انشغال
الحكام فيما بينهم من خلاف وصراع حتى سماها بعض مؤرخي الأندلس :
« الفتنة المييرة » - ولهذا كان من البدهي ان ينعكس ذلك على أحوال الناس
وتصرفاتهم ، ويطلع علاقاتهم بطوايح التجني والتجاوز والظلم والافراط في
العداء ؛ ظهرت صداؤه في أوساط الأدباء قبل غيرهم واتسمت علاقاتهم
بالسلبية القائمة على العداء والكراهية والكيد وترجموا ذلك في أشعارهم
ورسائلهم سواء بممارستهم لكل فن منهما بصورة مستقلة أو بصورة مشتركة
تجمع بين النثر والشعر في رسالة واحدة كما هو شأن أصحاب الملكيات
المزدوجة

وفي مقدمة ما نشير اليه هنا من الرسائل المتضمنة للمعاني المذكورة ما دار
بين أبي المغيرة وأبي محمد بن حزم من رسائل احتوت عبارات مؤثرة دلت
على مدى تردي العلاقة بين الأديبين وقد ذكرت نماذج منها في موضوع
المراجعات والمجاولات لما اتسمت به من أسلوب الجواب والمراجعة والحوار
أكثر من غيره .

على أن هناك نماذج أخرى جاءت معبرة عن أحوال المجتمع بصورة أوضح
وصلة أقوى ومنها تلك التي تعبر عن الدعوة إلى التعاون والتناصح والتذكير
فيما بين الأخوة والأصدقاء بأمور مهمة ذات صلة مباشرة بأحوال المجتمع ؛
فتجد مثلا ان ابا المغيرة يخاطب احد اخوانه - دون ان يذكر اسمه - في
أو جزء من رسالة وضعها ابن بسام تحت عنوان « وله من أخرى » يقول فيها :
« ... أعزك الله - في الاحتماء حسم الداء ، ولا عدو للانسان الا نفسه
ولا حية ولا عقرب الا جنسه ، وليس في الحيوان أخبث في ذاته من الانسان ،
فلا احتراس كل الاحتراس والمعاشرة الجميلة للناس ؛ فأبصر بصيرتك وأحس
سريرتك ، ولا تلدغن من جحر مرتين ، وأذكر المثل السائر في اللاعب بين

وتدين والعاقل من حمله كل بلد ، ونفق عند كل أحد ، وأعقل منه من عرف
الناس ولم يعرفه فاستراح من اجنبي متكلف أو قريب غير منصف ، ولم
يفتقر إلا إلى ربه ، ولم يأنس إلا بنور له .. (١) :

ونفهم من هذه السطور جملة من المضامين الاجتماعية التي قصدها أبو المغيرة
ورأى انها خطيرة مهمة يجب التنبيه اليها والتذكير بها وملخصها وجوب أخذ
الحذر والاحتياط أزاء أهل الغدر والخيانة مع ممارسة أقصى درجات الحكمة
والتعقل في الأمور بحيث يعلم الإنسان ما يأخذ وما يدع ... على ان هــسـلـه
المعاني لا تخلو من دلالة واضحة على كثرة أهل الغدر وانتشار قلة الوفاء بين
الناس حتى اقتضى ذلك الدعوة إلى الحذر الشديد بالبعد عن الناس ما امكن
لتفادي ما قد يترتب على مواقف هذا الصنف من الناس وتصرفاتهم من عواقب
مسيئة في حياة الإنسان البريء . غير ان هذه الدعوة من أبي المغيرة لا تخلو
كذلك من تعبير عن سوء ظنه بالناس جميعاً واتهامهم بالغدر والخيانة إلى حد
ان يرى ذلك طبعاً فيهم وفطرة جبلوا عليها وهذا مما لا يتفق مع ما خلست
الإنسان عليه من سلامة الفطرة وقوة الاستعداد لفعل الخير الا ان يستحوذ
عليه الشيطان فيكدر هذه الفطرة ويصرفها إلى غير وجهتها . ونجد قريباً من
المعاني المتضمنة في الرسالة السابقة معاني وردت في سطور جاءت في الذخيرة
تحت عنوان : « وله من أخرى » : يصف فيها أبو المغيرة حاله بين أقرانه
بصيغة أقرب إلى الشكوى مما يجده ويحس به من كثرة الحساد والكائدين
مع نفس متعال متفاخر بالنفس ومآثرها واعجاب بثباته ووقوفه ضد الاعداء
والمبغضين على الرغم من كثرتهم واشتداد كيدهم ؛ فهو جلد صابر محتسب
لا يخاف ولا يتردد ولا يضعف ولا يهون : « فكم ليث في غابة سمعـست
صريف أنيابه ، وقفر انت في يبابه إلى عواء ذئابه ، لا أمر الا بالـاصـص
المستلب ولا التقي غير المحارب المنتهب ، وشعاري عند النابتة القاها فأتخطاها
والنازلة أراها فأتعدها قول أبي الطيب :

(١) الذخيرة / ابن بسام - ق ١٠١ ص ١٥٢-١٥٤ .

فما أن أسلم فما أبقى ولكن سلمت من الحمام إلى الحمام (١)
ولكن أبا المغيرة لا يدع هذه الصورة القائمة تستحوذ عليه وتستغرق مشاعره
أو تأخذ باقطار نفسه وإنما يحاول أن يثبت لنا أنه لم يلبث أن يجني ثمسرة
صبره ومصابرته وثباته إزاء الملمات فإذا هي قد انتشعت وأفضت به إلى الفرج
بعد الشدة واليسر بعد العسر والخصب والرفاه بعد الجذب والجفاف حتى
تغيرت حالة من البؤس والشقاء والمعاناة إلى الراحة والسعادة والرفاه ، شأن
المثابر الصابر المجد الذي يتدرع بالاحتساب وقوة الإرادة وثبات العزيمة :
« ... وأنا أرقب من الزمان صنيعه وانتظر الحمام وأنخيل وقوعه وهو يذهب
بي إلى قبلة الأمال ، وأنا لا اصدق ، ويسوقني إلى محط الرحال وأنا لا أحقق
ويؤم بي البحر الذي لا تحصي فوائده والغيث الذي لا يخيب رائده ، وهلت
أحماًداً لما سقطت عليه ، وعلمت أنني في الحرم الذي لا يوطأ رحابه ولا
يطار غرابه ، ولا يخضد شجره ولا يمنع ثمره ، ولم البث أن نزلت بالبيع
وتمكنت من الرشاء والتليب ... » (٢) .

وربما فهم الباحث من هذه السطور وما بعدها أن أبا المغيرة يشير إلى غربة
عائناها ، وبعد عن الأهل وجناء من أحد الأمراء ؛ حرم بسببه من الكرم
والعطاء وحال بينه وبين العيش السعيد المرفه ، غير أن حالته هذه لم تدم فقد
حل في تلك الرحاب التي وصفها بالجنة والمتعة حيث لا يصل إليه حاسد
ولا يستطيع أن ينال منه بغض كائد ، وكان بعد ذلك اليمن والخسير
والخصب حتى تحقق له ما كان يصبوا إليه من مال وسلطان وعيشة رغدة .

ومما يسلك في هذا النوع من الرسائل ما ورد في رسالة أخرى من المعاني
والعبارات الدالة على أنها موجهة إلى أمير لم يشر إليه بالاسم مكتفياً بمبادئه
بالنظ « سيدي » ويوميء في أوائل النص إلى أنه كان يتطلع إلى الوصول إلى
رحاب هذا السيد والتزول في كتفه لينال الحظوة والأنس بالتقرب منه

(١) الذخيرة / ق ١٢١ ص ١٥٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٥ - ١٥٦ .

والراحة والاطمئنان إلى عطائه وكرمه ، وقد تحقق له ذلك بعد أيام شديدة ومعاناة طويلة قربته من اليأس والكاد ان ينفذ يديه من تحقيق رغبته مسع الضجر الشديد من شماتة الحساد به وضربهم الأمثال في حالة وما وصل اليه - وقتها - من الضعف والغربة والوحشة والحاجة حتى إذا لم يبق في القوم قرح ولا زيادة لمستزيد حلت العقد وأقبل السعد بعد أدبار : « لم أزل أزجر للقاء سيدي السانح وأستمطر الغادي والرائح ، وأروم افتتاحه ولو ببشر ك المنام ، وأحول اختلاسه ولو بأيدي الأوهام ، وأعاب الأيام فلا تعتب ، وأقودها اليه فلا تصحب ، حتى إذا غلب اليأس وشمّت الناس وضربت بي الأمثال ؛ فتقبل أكثر الأمثال ضلال ؛ تنبه الدهر من رقدته ، وحل من عقدته وقبل مني ، وأظهر الرضى عني ، وقال دونك ما جمع فقد سمح واليك فقد دنا ما كان في المنى ... » (١) .

وتأتي العبارات الأخرى من الرسالة - أو الجزء المذكور منها - معبرة عن تعليل أبي المغيرة ما حصل له من رغد العيش والفرج بعد الشدة بما دبجه قلمه من نثر وشعر في كلام يجمع بين خيرى الدنيا والآخرة مما جعله يشعر بالنشوة والفخر والاطمئنان والراحة ؛ ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ تغيرت الحال فجأة وصار كل شيء على خلاف ما كان عليه وتبدل السرور حزنا وعادت السعادة شقاء وبؤسا وما ذلك إلا لان المعنى بالخطاب قد عاد إلى سوء ظنه وفساد طويته وغلب عليه نزوعه إلى الشر فأخذ ما أعطى وسلب ما وهب : « ... وقد أذهلني الجدل عن سوء ظني به وأوهمني نزوعه عن ذميم مذهبه الت الوانه ونادى ليقيم من قعد وينتبه من رقد انما فترت تلك الفسرة ليكون ما رأيت عليك حسرة وسمحت لك مرة - لتذوق من الأسف عليها كأساً مرة ، فرأيت وقد كان الذي أعهد من لومه ، وأعرفه من شؤمه ، ما وهب الأسلب ولا أعطى الاساعات كابهام القطا ، فيا له من قادر ما ألام قدرته وذابح ما أحد شفرته ... » (٢)

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١٢١ ص ١٥٦ .

(٢) نفسه ص ١٥٩ .

ويمضي أبو المغيرة على هذا النهج في التعبير البليغ الدقيق عن الاضطراب وتقلب الأحوال متكثراً على لوم الدهر ثم يختم رسالته بأسفه من هذا الخصم الذي يتصوره واقفاً له بالرصاد وهو ليس شخصاً يمكن الوقوف في وجهه بسهولة ويسر « لكنه أمير من وراء سحف ، يسعى بلا رجل ويصول بلا كف ... (١) »

ولا يخفى ماثيره هذه العبارات في الذهن من دلالات اجتماعية وسياسية تتمثل في تحاشيه ذكر أي اسم أو إشارة الى شخص معين كان هو السبب في تغير حاله وانقلابها بعد ان استقرت وأقبلت عليه بالبشر والفرح ، وتؤكد في الوقت نفسه المنهج التقليدي الذي عرف عن الشعراء والكتاب في المشرق والأندلس ، المتمثل في تعليق ما يصيب الانسان في نفسه أو ماله أو أهله أو وطنه على الدهر وتحمله تبعه كل تقلب أو تغير ...

ويعلق ابن بسام على ماورد في السطور السابقة بالقول بأن ابا المغيرة قدس اخذ هذه المعاني أصلاً عن المتنبي ثم اخذها عنه ابن عباد (٢) ... مما يؤكسد حرص أبي المغيرة على معارضة المشاركة والتنبي مناهة بخاصة في اخذ المعاني وصياغتها في شعره او نشره .

ومن النصوص النثرية التي تأتي في هذا السياق من حيث مضامينها الاجتماعية سطور وردت تحت عنوان «وله من اخنى» جعل أبو المغيرة مقدمتها قطعة نثرية في وصف الطبيعة ضمنها مشاهد من فصل الربيع - وهي تأتي منفردة في رسالته في موضوع الوصف - وهو لا ينص على ذكر الربيع باسمه ولكنه يشير اليه بما ينطوي عليه من الخضرة والزهر والثمر يقول فيها : «... فالارض قد نشرت ملاءها ، وسجت رداءها ولبست جلبابها وتقلدت سخاها وبرز الورد من كاماه ، واهتر الروض بتغريد حمامه ، والأشجار قد نشرت شعورها وهزت رؤوسها والدنيا قد أبدت بشرها وأماطت عبوسها ، وكأن

(١) الذخيرة ق ١٢ ص ١٥٧

(٢) ينظر الذخيرة ق ١٢١ ص ١٥٧ - ١٥٨ .

بها قد اطلعت من كل ثمر ضرورياً (١). واذا كانت هذه السطور وما بعدها تدل على أن قائلها يعبر عن حالة من النشوة والسرور والراحة والبهجة ، فإن السطور التالية لها تلت النظر الى أن أبا المغيرة لم يورد تلك السطور ويعنى بلوحة ريعية بهيجة معبرة الا ليوافق بين حاله وشعوره العميق بالحزن والألم والغربة والحسرة على الرغم مما حوله من دواعي السرور والفرح ، فهو في حالة تختلف عما حوله تماماً وان كان في جسمه ومظهره يعيش تلك الحالة ويبدو أنه من أهلها فيقول : «..وان كنا لانشارك في تلك الا بالعيان لا باللسان ، وبالطرف لا بالكف ، وننالها بالاختلاس لا بالأضرار ، وللدهر قسم من أقسام اللذة ، وصنف من اصناف الشهرة :

شهدنا اذ رأيناهم فنانا على اللذات في الدنيا شهود (٢)

ثم يصرح بحاله وما ينتابه من سقم وعناء وضعف وبلاء قائلاً :
«..وحالي حال السقام بها اتصال ، وللصحة منها انفصال يعين على ذلك ضعف البنية وفساد الأهوية والتخليط في «الأغذية..» (٣) ونفهم من الرسالة أنها موجهة في الأصل الى أحد اقرانه يشكو له ما يعانيه ثم يطلب اليه ان يوافيه بخبره وحاله ليكون ذلك مسلاة له وعوناً على الصبر ازاء الصعاب ، ثم يختم الرسالة بالاستفسار عن شخص يشير اليه بـ «فلان» ذكراً صفاته كما يعرفها ومنها معرفة علم الطب والشريعة والشغف بجمع المال والرغبة في أنسواع الأغذية وذلك في تعابير دقيقة جاءت وكأنها لوحة فنية اجتماعية تصور حالة فئة من الناس في المجتمع نالت مالم ، تنله غيرها من نعيم ورفاه وسعادة .. وبعض صلاحها بل كله تعجيبك بمطالعتي بحالك لأسكن الى ماؤثر من ذلك وشفع لي بخبر «فلان» وشرح لي من خبر فلان واين بلغ من تكسبه حيث انتهى من تطيبه ، وكيف ظروفه وخزائنه ولصوقاته ومعاينه ، وهل ينفد طبه وينفق بخنجه وحبه ، وصف لي مايقوله على الماء..» (٤).

(١) - (٢) الأخيرة ق ١٢١ ص ١٥٤ .

(٣) - (٤) المصدر نفسه ق ١٢١ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

رسائل المجون واللهم

وفيما تبتني من رسائل أبي المغيرة رسالتان يبدو فيهما طابع السخرية والهزل والمجون وإن كانتا لا تخلوان من دلالات أخرى نرجو أن نوفق إلى الإشارة إليها في مضائهما .

أما النص الأول حسب ترتيب ابن بسام للنصوص النثرية المنسوبة لأبي المغيرة فقد أورده تحت عنوان «وله فصل من رقعة» . يقول فيها : «وعسى أن يكون شراء ذلك الديوان شراء التجار الأكياس من المدبرين القائلين بارتضاع الكافي ، وهم لا أن يكون أبو الحسين وسيطك وجماله شفيعلك فهو ممن كان له في الحسن لواء مرفوع وحلة تزري بالوشي الصنيع فني تلك الآثار ماسال من عذاره وطمس ليل اللحية ما كان أشرق من نهاره ، لاجرم لقد بقيت خيلان كالآثار الدالة على الديار والحلي السقيط ، المخبر عن عيس الخليط ، وإذا تأملتها قد اشتمل الشعر عليها وزحف من كل جانب إليها ذكرت بقول أبي الطيب :

برسوم كأنهن نجسوم في عراض كأنهن ليال (١)
فهذه القطعة من خلال توجيه الخطاب فيها تبدو قريبة من الرسائل الأخوانية غير أنها تسير بعد ذلك على وفق أسلوب الاستهزاء والسخرية معزوجة بالمعاني الغزلية مما جعل طابعها متسماً باللهم والدعابة والترفيه عن النفس ومفاكهة الأخوان في مجالس أنس ولهم وطرب حتى أن ابن بسام يشير إلى هذا بقوله : «وأبو المغيرة في دعابته هذه كما قرأته في فصل كتبه أبو عبد الرحمن بن طاهر إلى الوزير ابن عبد العزيز مع غلام وسيم (٢) .

أما النص الثاني فإنه يتفق مع نص الرسالة الأولى في عدد من المضامين الدائرة في اللهم والمجون ؛ إلا أنه يختلف عنه في كونه نصاً ذا دلالة أدبية واضحة كانت مثار تأمل من قبل الباحثين وهي تتمثل في كتابة أبي المغيرة رسالة

(١) الذخيرة ق ١٢١ ص ١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٤٠ .

أشبه ماتكون بالمقامة التي عرف فيها لدى المشاركة ، ويبدو أن أبا المغيرة قد عارض بها نصاً مشرقياً لأديب معروف في المشرق هو بديع الزمان الهمداني ، وكان أبا المغيرة أراد من ذلك افهام من يقرأ آثاره أنه يمتلك موهبة أدبية وفنية وقدرة لغوية مكنته من معارضة بعض المشهورين من المشاركة ، وتجسدر الإشارة الى أن الأندلسيين قد عرفوا فن المقامة وعارضوا المشاركة فيه بنصوص عديدة وخاصة في القرن الخامس والقرون التالية في الأندلس وعلى هذا فقد جاء أبو المغيرة معبراً عن هذا الاتجاه واضعاً أسسه حريصاً على الأجداد في ميدانه الأدبي والفني ، مستعيناً بأسلوب الدعابة والسخرية مع الفكاهة والطفرة المحيية التي تقرب المعنى الى القلوب وتزيده تأثيراً وإثارة . يقول ابن بسام بين يدي تقديمه النص الثري او المقامة : «وعرضت على ابي المغيرة رسالة (١) بديع الزمان في الغلام الذي خطب اليه ودة بعد ان عذر وبقل وجهه وازهر فعارضها برقة يقول فيها :»

«...ورد كتابك تنشذ ضالة ودّك وترفع خلقك عهدنا ماأفانته جريرتك الينا
وذهبت به جنائتك علينا ، أيام غصنك ناضر وبدرک زاهر ، لانجد
وسولاً اليك غير لحظة تخرق حجاب الدموع أو زفرة تقيم مناد الضلوع فان
رمننا شكوى ينثب بها مصدورنا أو يستريح اليها مهجورنا لقينا دونها أمنع
سدّ وأفدح ردّ ، وقلت أهذا الطامع في أن يطالع القمر الطالع ، والراغب
في أن يصاحب النجم الثاقب ..» (٢) .

ففي هذه المقدمة نحس بنبرة العتاب الذي لا يخلو من شدة وعنف وتجاه
من أعرض عن محبيه ابان شبابه وفتوته حين كان غصنه ناظراً أو زهره مفتوحاً
والأيام مقبلة عليه اذ كان ذا سلطان وقوة ثم فقد ذلك فجأة ، وقد أشار الى

(١) بديع الزمان صاحب المقامات المشهورة في المشرق والتي كانت من اسس مقامات الأندلس.
والرسالة المذكورة هي إحدى رسائله المعروفة ، ينظر في ذلك : رسائل بديع الزمان وزهر
الأدب - المصري ، ص ٧٣٢ حيث اورد نص الرسالة ضمن جملة رسائل

(٢) الذخيرة ق ١٤١ ص ١٤٠

هذا الحصري بقوله في تقديم رسالة بديع الزمان : «وكتب الى بديع الزمان بعض من عزّل عن ولاية حسنة يستمد وداده ويستميل فؤاده فأجابه بمسما نسخته..» (١) فالرسالة اذن كما ارادها أبو المغيرة - مقتضية لاثّر رسالة البديع - في رجل قد زال ملكه وسلطانه فأقبل على اصدقائه يتفقدهم ويسأل عنهم وقد كان قبلها معرضاً ناكراً مشغولاً بسلطانه عن الوفاء مع أقرانه . وما ذلك الا الحاجة المحت عليه وظروف شديدة نزلت بساحته فألجأته الى رحابهم ووضعته في فنائهم وفي هذا يصور أبو المغيرة تلك المشاعر منطلقاً من معاني رسالة البديع فيقول : (... ونعود الى نار الوجد بك نصلها وديار البعد عنك لانبرح مغناها حتى اذا أطفئت تلك النيران وانتصف منك الزمان بشعرات أغشت هلالك كسوفاً وقلبت ديباجك صوفاً وأعادت نهارك ليلاً.. أقبلت تنسلّ الينا لو اذاً وتطلب فينا عياداً وقد أنساك ذل العزل عز الولاية ، فالآن نلتاك بدمع قد جفّ ووجد قد كفّ وعزاء قد أبد وصبر قد غار فانجد ، وهوى قد أراح روحله وأطاع عاذله ، وسلو قد قرب ركائبه وأسعد طالبه ، ونظر منك الى روض قد صوح وسار قد أصبح وأعجم قد أفصح» (٢) . ثم يختتم أبو المغيرة - فيما يبدو لنا من - عباراته السائرة في هذه المعاني العتائية التقريرية الشديدة بقطع أمل طالب الود ومنعه من الأسراف في التأمل والقرب ويدعوه الى الانشغال بما هو أهم وأجدى وأرفع وأنفع ، وذلك مع ضرب المثل : ليثبت المعنى والتذكير بأن ما فات لا يعود مهما حاول الانسان ..) فهلا ذكرت المثل الممتن : الصيف ضيعت اللين ونسيت من أحرقت قلبه صداً وأقلقت خلبه رداً وملأت جوانحه نارا وتركت نومه سراراً أن يوفيك قرصاً ويجازيك حتى ترضى ، حين نكس علمك وعثرت قدمك ، وضافت طرقتك ، واطلم افقتك وخوى نجمك وخاب قدحك ، وفلّ سيفك وحط رحك فاطو ثوب وصلك فلا حاجة لنا الى لباسه وازو طارق شخصك فلا

(١) زهر الأداب / الحصري ٢٠ - ص ٧٢٢ .

(٢) - الذخيرة / ابن بسام / ق ١٢١ ص ١٤١ .

رغبة لنا في ايناسه فما نشتهي اليوم زيارة رمس من زهد فينا امس .
حانت منيته من سوء عارضة كذا تسود بعد الميت السدار (١).

وبهذا يختم أبو المغيرة قطعته النثرية أو رسالته المعبرة عن مشاعره العميقة تجاه العقوق والأعراض في الرخاء والأقبال في الشدة .. وهو يقطع بذلك أي سبب للوصول أو مظهر للمودة .

ولقد كانت العلاقة بين نص البديع ونص أبي المغيرة مثار اهتمام بعض الباحثين حين تتبع المعاني المشتركة بينهما وحاول اثبات المعارضة وتأكيدها من قبل أبي المغيرة لنص رسالة البديع ، وأشار إلى مواطن عديدة حاول فيها أبو المغيرة اقتفاء أثر سلفه المشرقي والسير على نهجه فيها مضموناً وشكلاً .

وملخص رسالة البديع ان رجلاً كان ذا نفوذ وسلطان وكان يتفاخر على أقرانه ولا يلتفت إلى أحبته وخلانه حتى إذا دار الزمان دورته وتخلت عنه سلطته رجع إلى أولئك الأجرة يلتمس سابق ودهم ويحاول احياء ما اقدثر من سالف عهدهم معه ، ولكنه لا يرى من البديع وأقرانه سوى الاعراض والصدود ، فقد كان يتيه على الناس كبيراً وترفعاً ، فلما زال عنه السلطان طلب التودد ولكن بعد فوات الأوان ، وكان الجواب عليه (رسالة من الطرافة والسخرية والازدراء بحيث لانملك الا الأعجاب برشاقة اسلوبها ومرارة سخريتها ...) (٢) ولكي يوضح الباحث بعض جوانب الصلة بين الرسالتين عقد موازنة بينهما بأن يعرض نصاً من رسالة أبي المغيرة ثم يقابله بنص من رسالة البديع ، ليستنتج بعد ذلك ما يربط بينهما من معنى وأسلوب بحيث يلاحظ المتأمل حرص أبي المغيرة على اقتفاء أثر البديع حتى في العديد من التعبيرات والالفاظ التي تؤدي المعنى نفسه وبالقدر نفسه من السخرية والهزء مع مزج بارع بين هذه المعاني وبين طرف وفكاهات تناسب المقام وتثبت المعنى في الذهن وتجعله أكثر قبولا وأستساغة » ان ابن حزم يقول على سبيل

(١) المصدر نفسه ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) الادب الأندلسي / موضوعاته وفنونه / مصطفى الشكعة ص ٥٨٣ .

المثال : أيام ترشقنا سهام الحاضك رشقاً ، وتقتلنا سيوف الغاظك عشقاً ،
ونميس عضاً ، ، فتثير حزناً ، وتطلع شمساً فتغيب نفساً ، خدودنا أرض
نعالك وصدورنا حد مجالك ، ونفوسنا مهاد جنبك وقلوبنا ميدان حزمك ،
فالآن نلقاك بدمع قد جف ووجد قد كف وعزاء قد أبد وصبر قد غار وانجد .
وقبل ذلك قال بديع الزمان : « وتناسيت أيامك اذ تكلمنا نذرا ، وتلحظنا
شذرا وتجالس من حضر ، ونسترق اليك النظر ونهتر لكلامك ونهش لسلامك
أيام كنت تمايل والأعضاء تترايل وتنفانج ، والأجساد تتعالج وتنفست ،
والأكباد تنفت وتخطر وترفل ، والوجد يعلوبنا ويسفل ، وتادبر وتقبـل
فتمنى وتخيل وتصد وتعرض فتضني وتمرض ... » (١) . ثم يأتي الباحث
بفقرة أخرى لابن حزم يقابلها بنص لبديع مؤكدا النتيجة التي استخلصها
في العلاقة بين النصين وهي ان ابا المغيرة « يسير في ركب بديع الزمـان
وينسج على منواله حتى في هندسة الرسالة نفسها من ايغال في السجع وعلوفي
السخرية ، والاحاح بالشماتة وتزيين للاسلوب بأبيات من الشعر تتمشى مع
طبيعة المعنى والسياق ... » (٢) .

سمات في نثر ابي المغيرة

ان المتأمل في رسائل أبي المغيرة عبر موضوعاتها المذكورة فيما سبق
يبدو له أن هذا النثر مكتوب بقلم كاتب معني بأصول الكتابة ولوازمها، معبر
عن ثقافة واسعة وأطلاع وافر على أدب المشاركة نثرهم وشعرهم فضلاً عن
اطلاعه على أدب الأندلسيين حتى عصر أبي المغيرة ، مما مكنه أن يكتب
نثراً ذا سمات تشهد بالتفوق والمقدرة الأدبية ويمكن أن ينظر في تصنيف
هذه السمات على جانبيين رئيسين : جانب المعنى وجانب اللفظ ، وذلك
تسهيلاً للنظر في تلك السمات وتحقيقاً لمنهج منسق يعنى بكل مجموعة من
السمات تدرج تحت عنوان رئيس ، وربما أعان ذلك على دفع ماقد يكون
من تداخل بين الصفات ... وبهذا يكون لنا أن نبدأ بالمجموعة الأولى

(١) - (٢) المرجع نفسه ص ٥٨٨ و ص ٥٨٩ - ٥٩٠ على التوالي .

إذا ألقينا نظرة على موضوعات الرسائل - كما اشار اليها البحث - أمكننا القول بأن هذه الموضوعات متنوعة تتناول جملة المضامين المتصلة بأحوال المجتمع في جوانب حياته المتعددة ، ولكنها مع ذلك موضوعات أدبية معروفة في الأدب العربي ، وجاء في مقدمتها ؛ الرسائل الأخوانية التي استأثرت باهتمام أبي المغيرة وشغلت حيزاً كبيراً من تلك الرسائل ، وكان مما عبرت عنه : علاقة أبي المغيرة بأقرانه من الادباء وغيرهم في جانبيها الإيجابي والسلبي ، وعبرت في الوقت نفسه عن حالة أبي المغيرة النفسية في أزماته وأحواله المتقلبة بتقلب الأحوال وتغيرها ، ومما قامت عليه تلك العلاقات مخاطبة الأعلام المشهورين في عصرهم لافي ميدان الأدب فقط وانما في ميدان العلم العام وعلوم الشريعة والتاريخ والنفس والأخلاق ، وذلك على نحو ما اشرنا اليه في مرسلته أبي المغيرة لأبي عمر بن عبد البرّ وأبي محمد بن حزم وهما من أعلام الفقه والحديث والادب وغيره ، وجاءت رسالته لابن عبد البر طافحة بمعاني المودة والأخاء واطهار مشاعر الود والوفاء والمحبة واثبات الحاجة الى اللجوء الى المخلصين الأوفياء في أوقات الشدة والمحن وتكاثر الاحزان والهموم وذلك كله بثبت موقف أبي المغيرة من صديقه العالم المحدث الاديب وتقديره لمكانته العلمية ، كما دلت مراسلاته مع ابن عمه ابي محمد ابن حزم على اظهار قدرته العلمية والأدبية ، على الرغم من كونها لم تصل الى درجة أبي محمد في نواحي عديدة ، أذ كان أبو محمد علماً بارزاً في سماء العلوم الأندلسية بخاصة والعربية بعمامة حتى كان ذلك من اسباب حسد أبي المغيرة له ومحاولة الحط من شأنه واضعاف مكانته العلمية . وفي رسائل المراجعات والمجاوبات لاحظنا طول نفس أبي المغيرة في الحوار ، والرد على الخصوم وان كانت ردوده لاتخلو من حدة وقسوة تجاه الخصم مع حاجتها الى مزيد من الموضوعية والعلمية حيث حجبت في ضباب السخرية والاستهزاء والانحدار الى الهجاء المقذع والمناقشة التي تفتقر الى الدليل المتقنع والحجسة الدامغة .

علما بأننا نجد أبا المغيرة أحياناً يجمع الى الهدوء واللفظ في مناقشته مع آخرين ومنهم أبو علي ابن الربيع وذلك ليأتي الجواب منسجماً مع أسلوب الرسالة السابقة لابي علي ، وبهذا جاء أسلوبها منظوياً على قدر واضح من العواطف الودية والمشاعر الأخوية والاحترام المتبادل في حين جاءت رسالة أبي المغيرة في الرد على احمد ابن عباس - وهو الأديب الكاتب المعاصر لابي المغيرة - ساخرة هازئة ، معبرة عن معاني وأفكار مزرية أقرب ما تكون الى الهزل والفكاهة ، وهكذا يمكن القول بأن أبا المغيرة في رسائله الجوابية ومراجعاته النثرية ، كان يحرص على أن يخاطب المقابل بما يناسب مكانته في نفسه ويوازي علاقته وصلته به ويتفق في ذات الوقت مع معاني واساليب الرسالة التي يجيب عنها .

وفي الرسائل الاجتماعية تبدو لنا الأفكار والمعاني المناسبة لأحوال المجتمع وتعبير عن الجوانب الهامة في حياته ؟ ومن هذا ما عبرت عنه الرسائل من جانب العلاقة السلبية بين الأقران والأصحاب وبصورة خاصة الأدباء منهم ، وربما أفادت ضعف العلاقات بين افراد المجتمع بصورة عامة الى حد دفع أبا المغيرة الى ان يوصي من يثق به بان يكون حذراً متحفظاً من الناس وان يعتزلهم ما استطاع ، وهو يرى أن أعدى ، عدو للانسان نفسه التي بين جنبيه ثم من يحيط به ويتصل معه بعلاقة مودة او أخوة أو قرابة ... وأبو المغيرة في هذه المعاني لا يكاد يتجاوز معاني الأقدمين في المشرق والأندلس وان كانت فترة حياته تمتاز بشدة الاضطراب والفتن والمحن . ولهذا وجدناه يدعو - الى جانب الحذر - الى الأفادة من التجارب والأحداث التي يمر بها الانسان عبر مسيرته في الحياة وذلك - كما يرى - شأن العقلاء والحكماء .

ومما عالج به أبو المغيرة في رسائله الاجتماعية من المعاني المتصلة بالمجتمع ظاهرة طالما عانى منها المصلحون والعلماء والأدباء والكتاب والشعراء ؛ فهي فترات التقلب والاضطراب حيث يسود الأغمار ويضعف ويغمر الأخيار من الناس ويكون ذلك دلالة تغير الموازين وأختلالها في ظل الاحتكام الى الجهل والهوى والحماقة والطيش .

أما مجموعة رسائل المجون واللهو فإن الملاحظ على أبي المغيرة فيها تجاوبه مع العديد من أدباء المشرق وتأثره بهم وبمعانيهم المجونة القائمة على أساليب السخرية والزراية الى حد الايغال في عبارات تنم عن البذاءة والفحش والأمعان في الاحتقار للخصم فضلاً عن التعبير عن المعاني الغزلية الهابطة ، وذلك على نحو ماورد في رسالته التي سبقت الإشارة إليها دون ايراد الألفاظ الفاضحة الفاحشة .

وبهذه الصفة نجد أبا المغيرة مختلفاً اختلافاً كبيراً عن ابن عمه العالم الأديب أبي محمد بن حزم على الرغم من ان الأخير كان يتصف بقدر غير قليل من الحدة والشدة والتسوة مع سرعة الانفعال والتأثر ولكنه بدا مستمسكاً بحدود الأدب وسمات الخلق المترفع العفيف الذي يؤدي الى الأعراض عن الجاهلين والتفوق عن مجاراتهم حتى مع القدرة على كبتهم والرد عليهم بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

المعاني العلمية

جاءت المعاني العلمية ضمن الموضوعات التي تمت تسميتها والإشارة إليها ولما كانت قليلة متناثرة لم نر افرادها بالبحث ضمن موضوعات الرسائل ، ذلك أنها لم ترق الى ان تكون نثراً تعليمياً علمياً وانما هي — كما اشرنا — لمحات علمية صيغت بعبارات أدبية ، وهي تدل المتأمل فيها على معرفة أبي المغيرة بتاريخ العرب وأحوالهم والوان تصرفاتهم وتجاربهم في نواحي مختلفة فنجد أبا المغيرة مثلاً يمسك عن التفصيل وبسط القول في الوطن الذي يحتاج اليه وخاصة في رده على رسالة ابن الربيب فانه قد سلك في هذا الرد مسلك الاحتجاج المجرد والنظر السطحي العابر الذي لا يعتمد الا القليل النادر من الأمثال والشواهد مع كثرة الأمثلة والشواهد من علماء الاندلس وادبائه وما تركوه من مؤلفات ومصنفات ودواوين وقد كان بين يديه منها القدر الوافر الذي يحتاج به فهو لا يرضى أن يتهم الأندلسيون بالتقصير ويطعن فيمن

يَدْعِي تَقْصِيرَهُمْ وَقُصُورَهُمْ وَيُرْدِ الزَّعْمَ بِالْتَّقْصُصِ وَالْإِبْطَالِ دُونَ تَفْصِيلِ فِيمَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنْ تَقَدُّمِ عِلْمِي وَثِقَافِي وَاسِعٍ فَهُوَ يَقُولُ مِثْلًا فِي سِيَاقِ رَدِّهِ : «فَأَرَى . خَبَرَكَ حَتَّى أَرَادْتَ الْإِبْطَامَ كَشَفَ السَّرَّ وَرَفَعَ السِّرَّ ، فَوَقَفْتَ عَلَى الصَّحِيفَةِ الَّتِي ظَاهَرَهَا دِيْبَاجٌ مَرْقُومٌ ، وَبَاطِنُهَا لَوْلُؤٌ مَنْظُومٌ ، وَوَشْيٌ مَحْكُوكٌ وَذَهَبٌ مَسْبُوكٌ ، فَارَيْتَ صُورَ الْأَدَبِ بَاهِرَةً الْمُرَآى وَالْعِيَانِ شَاهِدَةً لَكَ بِأَرْقِ لِسَانٍ وَأَصْدَقِ بَيَانٍ :» (١) وَيَمْضِي أَبُو الْمَغِيرَةِ عَلَى هَذَا النِّهْجِ مَادِحًا مَرَّةً قَادِحًا أُخْرَى حَتَّى بَعْدَ أَنْ يَأْتِي إِلَى مَا يَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ تَفْصِيلًا فِي الرَّدِّ كَمَا تَوْحِي الْعِبَارَةُ بَعْدَ تِلْكَ الْمَقْدَمَةِ الطَّوِيلَةِ « فَأُولَ مَا قَدِمْتُ فِي كِتَابِكَ مَا يَقْدِمُهُ ذُو الْغَضَلِ وَالنَّبِيلِ فِي الثَّنَاءِ عَلَى بِلَدِنَا وَأَهْلِهِ .. » (٢) . وَيَسْتَمِرُّ عَلَى هَذَا دُونَ أَنْ يَنْتَازِلَ ذَكَرَ مَا يَلْحُضُّ بِهِ اتِّهَامَ التَّقْصِيرِ وَدَفْعَ الْعِجْزِ عَنْ أَهْلِ الْإِنْدَلُسِ بِقُعُودِهِمْ مِنْ تَسْجِيلِ مَآثِرِ عُلَمَائِهِمْ وَأَدْبَائِهِمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ مُؤَلَّفَاتٍ وَأَثَارٍ وَكُلِّ مَا يَأْتِي بِهِ مَنَاقِشَةُ الْمَعَانِي الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو عَلِيٍّ ابْنُ الرَّيِّبِ وَكَيْفَ أَنَّهُ لَمْ يَوْفُقْ فِي مَعَالِجَتِهِ لَهَا وَلَمْ يَكُنْ مُتَنَصِّفًا فِي عَرْضِهَا .. وَيُلْجِ أَبُو الْمَغِيرَةِ فِي السَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِ هَذَا حَتَّى نَجِدَ ابْنَ بَسَامٍ بِضِيقِ ذُرْعًا وَيُلْجَأُ إِلَى اخْتِصَارِ الرِّسَالَةِ مَعَ تَذَرُّعٍ بِقَوْلِهِ :

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١٢١ ص ١٢٦ .

(۲) المصدر نفسه ص ۱۳۷ .

(۳) المصدر نفسه ص ۱۳۹ .

المغيرة وعصر ابن بسام وهو الثالث الأول من القرن السادس . على أن المعاني والافكار العلمية التي أوردها أبو المغيرة متناثرة في رسائله المختلفة لا تخلو من دلالات أخرى ربما كان في مقدمتها اطلاعه الواسع على معاني أهل المشرق سواء على الصعيد العلمي أو الادبي أو كليهما معاً ، ومتابعته لدواوين الشعراء ورسائل الكتاب ومصنفات الأدباء وما حوته من الأخبار والآثار والمعاني الاجتماعية والسياسية والخلقية والتربوية والتعليمية حتى اننا نرى ابن بسام يقطع حديثه عن نثره وهو يسوق نصاً لأحدى رسائله ليرجع معنى من المعاني الى أصله المأخوذ منه ثم يورد جملة من مواطن الأخذ للمعنى نفسه بين الشعراء في استطراد طويل . ونذكر في هذا المزمع رسالة ابي المغيرة التي نسج فيها على منوال بديع الزمان ، في احدى رسائله ، حتى جاءت اشبه بالمقامة وأقرب ما تكون الى نص بديع الزمان ، وفي هذه الرسالة جملة من المعاني والافكار ذات الدلالات العلمية المشرقية مثل قوله : «... والراغب في أن يطالع النجم الثاقب ؟ لشد ما زاد وأبعد ما أراد ، حاول تألف الظبي الشارد وهصر الغصن المائد بدفعة صبها وزفرة شبها ، أما علم ان لحظي سهم ؛ القلوب أغراضه ، وأني ظبي النفوس رياضة...» .

ومثل قوله في موطن آخر من الرسالة نفسها : «... ونسيت من أحرقت قلبه صداً واقلعت لبه رداً وملأت جوانحه ناراً ، وتركت نومه غراراً ، أن يوفيك قرصاً ويجازيك حتى ترضى ، حين نكس علمك وعثرت قدمك وضاعت طرقك وأظلم أفقك وخوى نجمك وخاب قدحك وفل سيفك وحط رمحك ، فاطور ثوب وصلك...» . وهذه المعاني وأمثالها تبدو مألوفة معروفة في أدب المشرق ومعانيه وأفكاره وأنماط سلوك الناس وعلاقاتهم التي تجاوب الأدب معها وعبر عنها بوسائل وأساليب عديدة ، ولهذا وجدنا أبا المغيرة يحرص بشدة على محاكاة أعلام المشاركة ومنهم بديع الزمان في النثر وأبو الطيب المتنبي في الشعر وكانت هذه المحاكاة أبرز ما نلاحظ بين

رسالة أبي المغيرة ورسالة بديع الزمان ؛ حيث ترتبط كل منهما بالأخرى
 بخيط من المعاني الرئيسة حاول فيها الأديب الأندلسي ترسم خطى الأديب
 المشرقي وبدأت العلاقة بين المجتمعين وثيقة قوية متلاقية قبي جملة من السمات
 والدلائل الاجتماعية المختلفة في مرحلة مهمة من مراحل كل منهما الى جانب
 ما امتاز به الأديب الأندلسي - أبو المغيرة - من الحرص على الزخرفة اللفظية
 والوان التعبير وتباين الأساليب بما يعبر عن ذوق الأندلسيين وما عرفوا به
 من حب للتأنق والزينة في مظاهر حياتهم مستمدين ذلك من طبيعة بيئتهم
 وشخصيتهم ذات السمات والملامح الخاصة ولا شك أن هذه المظاهر
 والخصائص التي نشير إليها هنا بصورة عابرة يمكن أن تعدّ تمهيداً أو توطئة
 بين يدي الحديث عن سمات نثر أبي المغيرة على صعيد الألفاظ والأساليب.

سمات الألفاظ والأساليب

وإذا نظرنا في نثر أبي المغيرة من حيث الفاظه وأساليب التعبير فيه ، نجد
 أن هذا النثر مصوغ بعناية واهتمام كبيرين مع مادلّ عليه من موهبة أدبية
 وثروة لغوية وعلمية واسعة وإهتمام بالرسالة النثرية من حيث بناؤها وشكلها
 وصور التعبير فيها ، وقد أرتأى البحث أن ينظر في هذه الأمور في رسائل
 أبي المغيرة وذلك في اطار بناء الرسالة وسماتها البيانية والبديعية.

بناء الرسالة في نثر أبي المغيرة

ليس من السهل على الباحث أن يلاحظ اهتمام أبي المغيرة بمقدمة الرسالة
 مهما اختلفت الموضوعات وسبب ذلك فيما يبدو أن أكثر الرسائل الواردة
 في الذخيرة تخلو من المقدمة التقليدية المعروفة في رسائل المشاركة وعدد من
 الأندلسيين ولعل من أسباب ذلك اغفال ابن بسام لتلك المقدمات اختصاراً -
 كما ذكر ذلك في أكثر من موضع - وتأكيده على أن ما يورده فصول من
 الرسائل وليست النصوص الكاملة لها.. ولكن مع ذلك نجد ان عدداً من
 هذه النصوص يدل على عناية واهتمام بافتاح الرسالة وذلك على نحو ما.

بنا في رسالة أبي المغيرة الجوابية التي كتبها رداً على رسالة ابن الربيب وهذا ما يشير اليه الجزء المذكور في بدء الرسالة على النحو الذي وردت به في اللخيرة فهو يقول: «أبقاك الله من حميم صريح الود أهدي تحيته على البعد...» (١) وهذه العبارات ربما أشارت الى عبارات أخرى سابقة عليها افتتحت بها الرسالة وخاصة عبارات الحمد والثناء على الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم ، حيث يفترض أن ابن بسام قد حذفها هرباً من التطويل واعتماداً على أنها من بدهيات الرسائل المماثلة ، ومما يؤكد هذا ؛ رسالة أخرى يفهم من بداية نصها أن العبارات الأولى فيها تمثل أوائل الرسالة وافتتاحها ؛ يقول أبو المغيرة فيما نقله ابن بسام : «أعزك الله - في الاحتماء حسم الداء، ولا عدو للإنسان الا نفسه» (٢) . أو يقول : «وقفت - كالأك الله - وأنت عين التمام وعلم الأعلام على كتاب عنوانه باسمك أسمال» (٣).

أو يقول في مفتتح نص آخر : «مؤدي كتابي هذا قصد حنفة الحاجب الفاضل...» (٤) فهذه العبارات وأمثالها في أوائل الفصول المذكورة من الرسائل تلفت نظر الباحث الى أنها قريبة جداً من مفتتح الرسالة وبدئها وأن ما حذف من ذلك الأبتداء قليل جداً بالأضافة الى كونه معروفاً في عموم الرسائل الودية بصورة خاصة وفي الرسائل الإخـ.....رى بـ.....صورة عامـ.....ة . ولعل أهم ما يعتمد عليه الباحث في تحليل ذلك أن المنقول فصول لا تمثل النصوص الأصلية لتلك الرسائل مما يجعل مسؤولية ترك تلك المقدمات لاتقع على عاتق أبي المغيرة بقدر وقوعها على عاتق ابن بسام الذي اختط في ذخيرته منهجاً يلتزم فيه الاختصار والاختيار من النصوص .

(١) اللخيرة / ابن بسام - ق ١٢١ ص ١٢٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٣) نفسه ص ١٦٢ .

(٤) المصدر نفسه ص ١٥٢ .

السجع والازدواج

ومما امتاز به نثر أبي المغيرة عنايته الواضحة واهتمامه البالغ بترصيع عباراته النثرية بسمتي السجع والازدواج اللتين تمثلان اطار التعبير في العديد من النصوص النثرية في المشرق والأندلس عبر الموضوعات والأغراض المختلفة لدى المشهورين من كتاب المشرق والأندلس مثل الجاحظ وبديع الزمان وابن عبد ربه وغيرهم من كتاب ونائري القرون الأربعة الأولى من الهجرة ، وبهذا يأتي أبو المغيرة متسجماً مع عصره متجاوباً مع الخطوط العامة لقواعد النثر العربي ؛ تلك القواعد التي تعنى بالزخرفة والترتين والترصيع بأقدار مناسبة وان كان ذلك قد تطور في القرون التالية إلى تصنع لفظي لم يخل في كثير من الأحيان من ثقل ومجافاة للطبع والبداهة والنمطية ونأتي إلى نصوص أبي المغيرة لنجد ان هاتين السمتين تبدوان بوضوح في تعابيره العديدة ومن ذلك قوله في رسالته لأبي علي ابن الربيب : « ... فرأيت صورة الأدب باهرة المرأى والعيان ، شاهدة لك بأذلق لسان وأصدق بيان ... » (١) وكذلك قوله في سطور وضعها ابن بسام تحت عنوان : فصل من رقعة له

« مؤدي كتابي هذا قصد حضرة الحاجب الفاضل ، ولم يجد بداً من سبب واصل ، إلى رجاء حاصل » (٢) أو قوله في صدر سطور جاءت تحت عنوان : وله من أخرى : « وان رأيت تأنيسي بكتاب أجتلي فيه وجوه البدور وجواهر النحور ، ودرر الثغور ، وأجتني به ثمر السرور ... » (٣) . وحسن نعيد النظر في هذه العبارات وعبارات الرسائل بصورة عامة يبدو لنا حرص أبي المغيرة على استعمال ظاهرة الازدواج أكثر من ظاهرة السجع مع أنهما متقاربتان بينهما وشيجة قوية وصلة واضحة ، فهو يحرص على تكرار الحرف الأخير مرتين أكثر من حرصه على تكراره مرات عديدة ليكون سجعاً ،

(١) الذخيرة ، ابن بسام ق ١٢١ ص ١٣٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢ .

(٣) نفسه ص ١٥٩ .

وهكذا بدت ظاهرة السجع إلى جانب الازدواج خافتة ضعيفة لطفيان ظاهرة الازدواج على عموم التعابير الواردة في الرسائل ، ففي النص الأخير مسن النص السابقة نجد ان ظاهرة السجع قد وردت في ثلاث جمل انتهت بالفاظ : البدور ، النحور ، السرور . في حين نجد ابا المغيرة ينتقل إلى سمة الازدواج بعدها مباشرة فيأتي بحرف موحد في كل جملتين وبمضي فسي ذلك حتى نهاية النص من الرسالة قائلا : « ... وأرفع في رياض العلوم ، ما بين منشور ومنظوم ، نفست من خناق مشتاق كتيب ، وأنست من وحشة منفرد غريب ، بحيث لا أخ كريم ، ولا ولي حميم ، فقد صرت ولا أحيل على الأثر بعد العين كما قال أحمد بن الحسين :

ما مقامي بأرض نخلصة الا كمقام المسيح بين اليهود .. (١)

ومثل هذا ما ورد في رسالة أبي المغيرة التي وردت سطورها الأولى ضمن موضوع الرسائل الاجتماعية ومنها قوله : « ... والعامل من حملة كل بلد ، ونفق عند كل أحد ، وأعقل منه من عرف الناس ولم يعرفوه ، فاستراح من أجنبي متكلف - أو قريب غير منصف ولم يفتقر إلا إلى ربه ، ولم يأنس إلا بنور ليه ... » (٢) وهكذا نلاحظ حرص أبي المغيرة على ان يوحد كل فاصلتين في التعابير بحرف واحد هو الدال في الأولى والثانية ، والهاء في الثالثة والرابعة والفاء في الخامسة والسادسة ، ثم الهاء مرة أخرى في السابعة والثامنة وهكذا بالنسبة للمواطن الأخرى على امتداد النصوص المختارة فسي الذخيرة من نثر أبي المغيرة .

عن ان الالة الهمة - كما نرى - في هذا المجال تبدو في حصر صرص أبي المغيرة على البعد عن النقل والمجافاة للطبع مما قد يتسبب في السجع أحياناً حيث لجأ الكاتب إلى التنوع في الفواصل مع الأخذ بتوحيد الفاصلة في نهاية

(١) نفسه ص ١٥٩ .

(٢) الذخيرة / ابن بسام ق ١ ص ١٥٤ .

كل عبارتين وبهذا يكون قد جمع بين السمتين محققاً أمر الرابطة التي تربط بينهما مع التنوع الذي يعد من لوازم الزخرفة اللفظية بأسلوب رشيق رائق معبر بعيد عن السماجة والاستثقال وتوظيف ذلك لخدمة المعنى المراد فسي القطعة الثرية ؛ ولعل الباحث بعد هذا كله يستطيع القول بأن المزج بين السمتين المذكورتين واستعمالهما بأقذار مناسبة مؤدية للمعنى ومحقة لقدر غير قليل من سمات الجمال في التعبير والدقة في التصوير .. نقول ان ذلك كله لا يعد عن طبع الأندلسيين وميلهم إلى إثارة السهولة والوضوح في كل شيء مع الأخذ بأسباب التعبير الجميل المؤثر .. مما يمكن اعتباره صدى لأحوال البيئة والشخصية الأندلسيتين .

وربما أفاد هذا كله بأن أبا المغيرة انطلق في قواعده الكتابية الثرية مسن قواعد وأصول المشرق مترسماً خطى الأقدمين المشهورين من أعلام المشرق في الكتابة ولكنه مع ذلك لم يبعد عن اطار بيئته ولم يغفل ميول وطبائع شخصيته الأندلسية وهذا نهج طالما حرص عليه الأندلسيون في مراحل حياتهم العلمية والثقافية والأدبية المختلفة وخاصة في القرن الرابع والقرن الخامس والقرون التالية وان كانت هذه الصفة تبدو أكثر وضوحاً وتألُقاً في الشعر دون النثر . وذلك ما عرفه الدارسون والباحثون في الشعر الأندلسي عبر شعرائه المشهورين المجيدين أمثال ابن دراج وابن شهيد وابن حزم وابن خفاجة وابن عبدون وابن وهبون وغيرهم كثير .

سمات بيانية

إذا كانت الموضوعات الرئيسة في علم البيان هي : الاستعارة والكناية والتشبيه ، فاننا نجد أبا المغيرة قد اكد عليها وعنى بها في نثره عناية كبيرة كادت تغطي على السمات المعتمدة على الفنون البلاغية الأخرى ، والمتأمل في رسائل أبي المغيرة لا يكاد يقرأ سطرأ واحداً خالياً من صورة او أكثر من

صور البيان المذكورة .

وتأتي الاستعارة في مقدمة هذه الننون من حيث كثرة استعمالها في هذا النثر حتى استوعبت الكثير من التعابير والجمال التي تتنارب معانيها وتختلف الفاظها وتعابيرها في وجوه متعددة واقدار متباينة ، ففي مفتتح قطعة من نثر ابي المغيرة وردت تحت عنوان (فصل من رقعة شفاة ايضاً) نلاحظ فيها استعمال ابي المغيرة لعدد من الاستعارات الجميلة المعبرة المعتمدة على نقل الحس إلى المعنى او العكس او الحسي إلى الحسي او المعنوي إلى المعنوي ، حتى بدا المعنوي محسوساً وكأنه كائن حي يشعر ويحس وينظر ويتأثر وينفعل ويؤثر وله من صفات الأحياء الشيء الكثير : « اذا شرب روض الشكر من حوض البر ، اطلع من الزهر ، ما يحمل مسك الطرر وتنفس عن نسيم يشفي حرارة القلوب الهيم... » (١) . ففي هذه العبارات القليلة نلاحظ : نقل الروض إلى الاحساس والشعور بالحياة باسناد الشرب اليه على قاعدة الاستعارة المكنية ، ومثل : حوض البر ومسك الطرر والنسيم الذي يشفي حرارة القلوب الهيم . والقلوب الهيم التي أصبحت كالابل العطاش الهيم .

وبعد ان يشير الكاتب إلى الشخص المعنى بالشفاعة ويكنيه بأبي الربيع ، يأتي إلى ذكر المزيد من اوجه التعريف بصفاته وشماله معتمداً صور الاستعارة على نحو ما سبق فيقول : (...) فمن اوثقه برأ طوقه شكراً ، ومن خلع عليه ثياب الفضل من طراز الاكرام ، نزع اليه بجياد الحمد من مربوط الكلام ، ولم يزل يمجزي خلف الطلب بيد الأدب ، ويسري في ظلام الأمور بسراج المنظوم والمنثور حتى اذا رأى تلك الأسباب رثائساً ، وعان مبرم وسائلها انكاثاً — طلق عرس الشعر ثلاثاً وصار لا يرى نجمة الأدب ، ولو اوطأته على ارض من الذهب.. » (٢) . ويبدو بوضوح تأكيد الكاتب وتحريه الشديد لأبراد الصور الاستعارية بألوان مختلفة لتؤدي معاني متقاربة إلى حد كبير

(١) اللخيرة / ابن بسام / ق ١٢١ ص ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٢ - ١٥٣ .

مثل قوله : او ثقه برأ ، طوقه شكراً خلع عليه ثياب الفضل ، يجياد الحمد ،
مربط الكلام ، ، سراج المنظوم والمنثور الاسباب رثائاً - مبرم وسائلها
انكثاً . طلق عرس الشعر . نجمة الادب ... وهي صور تؤكد الصفات العالية
للممدوح وتركز على الفضائل المعروفة المشهورة ولكنها لا تسميها باسمائها
وانما تعبر عنها بهذه الاستعارات اللطيفة الملوثة مما يكون اكثر تأثيراً وأعمق
اثارة للمشاعر الإيجابية تجاه من يمدحه الكاتب .

وفي موضوع وصف الطبيعة وفيه نص واحد تقريباً - نرى ابا المغيرة
يسير على النهج نفسه في "صياغة تعابيرها واصفاه بأساليب استعارية ربما بدت
اقوى من نظائرها في الموضوع السابق وغيره واقرب إلى الرشاقة والرقعة ،
والدلالة على ذوق ادبي اصيل وعدة لغوية وادبية وافـــــــــــــرة ؛ فهـــــــــــــو
يقول : (فالأرض قد نشرت ملاءها ، وسحبت رداءها ، ولبست جلبابها ،
وتقلدت سخابها ، وبرز الورد من كامه ، واهتز الروض لتغريد حمامه ،
والأشجار قد نشرت شعورها وهزت رؤوسها ، والدنيا قد أبدت بشرها
وأماطت عبوسها وكأن بها قد اطلعت من كل ثمر وضروباً وأبدت من جناها
منظراً عجيباً ...) (١) .

وهكذا تبدو هذه الصور لوحة فنية معبرة ، رسمتها ريشة فنان اصييل
يمتاز بلذوق ادبي وطبع رقيق وعدوبة ورشاقة في التعبير والتصوير ، وقد
جاءت الاستعارة المكنية مؤكدة على العلاقة بين المحسوس والمحسوس اكثر
من تأكيدها على العلاقة بين المعنوي والمحسوس على نحو ما رأينا في صور
القطعة السابقة وهي رقعة الشفاعة ، وهذا كله يدلنا على قدرة الأديب في
التعبير عن بيئة الأندلس بكل خصائصها وميزاتها وشخصية الأندلسي بأصولها
ومقوماتها وطباعها وتأتي صور الاستعارة بشكل مكشوف متوال في سياق
الرسائل الاجتماعية التي عبرت عن جانب من طبيعة العلاقة بين ابي المغيرة
وأترابه من الأمراء والأدباء والأهل والأصحاب ؛ وما كان يجده ويحس

(١) الذخيرة / ابن بسام / ق ١٢١ ص ١٥٤ .

به من الاطمئنان والراحة والاستقرار والتفاؤل في ظلهم وذلك عبر مخاطبتهم وتبادل التعبير عن المشاعر الودية الأخوية والروابط الروحية والأدبية ؛ يقول ضمن رسالة طويلة فيها عديد من المعاني الدالة : .. وطرقت روضة العلم عسيمة الأزاهر ، فصيحة الطائر ، ربا الجداول ، باردة الضحى والأصائل ، وطفت بكعبة الفضل مصونة الحبر ، ملثومة الحجر ، عزيزة المقام معمورة المشعر الحرام ، فما شئت من محاضرة تجمع بين الدنيا والاخرة ، بين يدي ثري بري الاعجاز ، ونظم ما اشبه الصدور بالأعجاز وحديث تقف العقول بازائه ، وتروي بصافي مائه ، فحيث شمع بالظفر انفي ، واهتر لنيل الأمن عظمي ، والدهر يضحك سراً ويتأبط سراً ... (١) .

ولا يخفى على المتأمل في هذه العبارات ان اصل فكرتها وموجز معانيها مديح رجل بالغ اللسان قوي البيان جاء كلامه روضة غناء حوت الوان الزهر والعطر وبدت بأثواب زاهية ومياه غزيرة وافية فكانت اشبه بكعبة تقصد حيث الأمن والانس والراحة ، ويبدو كذلك للمتأمل في هذه الصور حرص ابي المغيرة على اعتماد عنصر الكفاية إلى جانب الاستعارة لما بينهما من شائج مشتركة ؛ ومنها ذكر الطواف بالكعبة وتقجيل الحجر حين تذكره الكاتب وهو يطوف بذلك الروض ، وكان الكاتب بارعاً في الموازنة بين صور الكفاية والاستعارة والانتقال بينهما .

ولا يتوقف امر المزج بين صور الاستعارة والكناية بتألف وتفاعل بخادم المعنى ويزيده رقة وجمالاً بل يتعداه إلى الأخلد بفن التشبيه - ولو بقدر قليل ليزين به صوره ويذل على قدرته في توظيف هذه الفنون المهمة الرئيسة في علم البيان مثل قوله : ونظم ما أشبه الصدور بالأعجاز ، أما الطواف بكعبة الفضل . يصونه الحبر ملثومة الحجر ، عزيز المقام ، معمورة المشعر الحرام .. فهي كفايات متوالية جاءت معبّوة عن تصور الشاعر وسعة خياله وقدرته على تأليف الصور من أجزاء مناسبة منسجمة يكمل كل منها الآخر مع ما في ذاك

من دلالات مشهورة معروفة لاتخفى على أحد ويمضي أبو المغيرة على النهج نفسه في استعمال الكنايات المتوالية التي تؤلف صوراً معبرة يطرز بها كلامه ويزين جملة ، فيقول ضمن رسالة من رسائله إلى ابن عمه الفقيه الأديب أبي محمد بن حزم وذلك في سياق المناقضات الثرية بينهما : -

« ... ونسيت أبا محمد حاشيتك وشيعتك ، التي صرت رئيس مدارسهم وكبير احراسهم ، تحدثهم عما كان فيهم من العبر ، وتخبرهم بما تعاقب عليهم من الصفا والكدر فتارة عن السامري والعجل ، وتارة عن القمل والتمل وطوراً تبيكيهم بحديث النبي ، وطوراً تضحكهم بقوم جالوت وذويه (١) . وتكاد هذه العبارات تكون كلها كنايات عبر فيها أبو المغيرة عن غمزه ابن عمه وما كان يمارسه من علم القرآن والتفسير وذكر العبر والعظات بالأمم السالفة مع ذكر اسماء ودلالات وردت في القرآن الكريم في شأن بني اسرائيل وعبادتهم العجل أو امتهانهم بآيات عديدة وما أوقع الله بهم من التيه جزاء أعراضهم وأمعانهم في المعاندة والتكذيب ، وأخيراً الإشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم عن جالوت وقومه وقصة المواجهة ونتائجها ..

وتتوالى صور الكناية معبرة عن المعاني المتقاربة المترادفة كذلك في رسائل أخرى من موضوعات أخرى منها ما كتبه أبو المغيرة في التعبير عن الشكوى من أقرانه وأصحابه حين ساء ظنه بهم ، ربما بسبب ما لاقاه من بعضهم حتى وصل به الحال ان يتصور نفسه ، كأنه يعيش في غابة للوحوش ليس فيها الا ذئب مفترس أو لص متربص أو أسد هصور ، ولكنه مع ذلك يبدي - كما يزعم - ثباتاً وعزماً وقوة وبأساً دون ان يضعف أو يلين : « ... فكم ليث كامن في غابة سمعت صريف أنيابه . وقفر أنست في يبابه إلى عواء ذئابه ، لا أمر الا باللص المستلب ولا القى غير الحارب المنتهب ، وشعاري عند النائية القاها فاتخطاها والنازلة أراها فاتعداها » (٢) .

(١) الذخيرة / ق ١ م ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٥ .

وتبدو صور الكنايات واضحة في هذه العبارات وفيها قوله سمعت صريف
إنياه ، وقفر أنست في يابه ، إلى عواء ذئابه .. اللص المستلب ، الحارب
المتهب ، وكلها كنايات معبرة عن الجو الذي يحيط بالكاتب وطباع الناس
الذين يتعامل معهم ..

أما الرسالة المطولة التي عارض فيها رسالة بديع الزمان فأنها لم تذكر أقل
حظاً من اجتواء صور الاستعارة والكناية إلى جانب قدر قليل من التشبيه جرياً
على عادته فيما سبق .

يقول في قطعة من تلك الرسالة : (... ونسيت من احقرت قلبه صداً ،
واقلقت قلبه رداً ، ومألت جزائحه ناراً ، وتركت نومه غراراً ، ان يوفيك
قرضاً ، ويجازيك حتى ترضى حين نكس علمك ، وعثرت قدمك ، وضافت
طرقك ، واظلم افقك ...) (١) .

ولعل الصور في هذه العبارات واضحة لا تحتاج إلى تحديد أو ذكر بعدما
سبق من اشارات وعبارات اغنت عن ذلك . ووضحت منهج ابي المغيرة في
استعماله صور البيان .

ونجد هذا أيضاً في رسالة اخرى لأبي المغيرة يغمز فيها شخصاً لا يسمي ... لذكر
اسمه الصريح ... ونما يشير اليه بـ (فلان) ويورد من اوصافه التي تتعلق بما
يتعاطاه من حرفة او يعرف به من تصرف ما يجعله مثلاً في الزراية والسخرية
المؤثرة وقد سبقت الإشارة إلى هذه الرسالة في اكثر من موطن من البحث
ولا نرى ضرورة الإشارة إلى عدد من عباراتها بعدما اوردناه من نماذج وصور
في الموضوع نفسه (٢) .

أما صور التشبيه فأنها — كما سبق ان ذكرنا — قد جاءت اقل قدرأ في
الاستعمال من صور الكناية والاستعارة ولكنها ، على كل حال يمكن ان تدل
على عناية الكاتب بصور البيان عامة مع عناية اكبر بالصور التي تكون ابلغ

(١) الذخيرة ق ١٢١ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٢) ينظر نص الرسالة في الذخيرة ق ١٢١ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

بياناً واعمق تأثيراً في النفس من غيرها ، بل ان ابا المغيرة حتى في الصور القليلة من التشبيه نراه يؤثر التعابير المؤثرة الجميلة التي تعتمد اسقاط اداة التشبيه ووجه الشبه ، او يستعمل المشبه به بدل المشبه او حذف المشبه به واسناد صفة من صفاته إلى المشبه وبهذا يتحول التعبير إلى استعارة تصريحية او مكنية وهما صورتان الرئيسيتان اللتان اكدت عليهما اكثر الصور عبر الرسائل المختلفة ومن هذه الصور التشبيهية التي جاءت في حنايا التعابير الاستعارية والكنائية قول ابي المغيرة : «حتى اذا لقي من كريم صوناً وعلى من يحاول عوناً ، ذكر فيشكر بثناء كالزهر تحت انداء السحر ..» (١) . فالثناء — هو شيء معنوي صار كالزهر الذي هو شيء محسوس معروف ولا يخفى ما في هذه العبارات من التشبيه الذي يجعل الثناء كالزهر في تلونه وجماله وبهائه وقوة تأثيره قد جاء بالكاف اداة للتشبيه ثم عدل عن ذكر الاداة في العبارات الأخرى فجاءت تشبيهاته بليغة مؤثرة جميلة ...

واذا تذكرنا علم البديع وفنونه وحاولنا متابعة ما قد يكون من صورته في كتابة ابي المغيرة وجدنا منها الشيء الكثير من فنون هذا العلم وفي مقدمتها الطباق والجناس بأنواعهما وهما من سمات الزخرفة اللفظية والملامح الجمالية المعروفة في ادب العرب شعراً ونثراً بأقدار متفاوتة واشكال متباينة .

ففي نطاق استعمال الجناس — وهو فن بديعي معروف في اساليب الأدب العربي — نجد ابا المغيرة لا يغفل تطريز عبارته بنماذج منه ولكنها غالباً ما تأتي في نوع الجناس الناقص وذلك في قوله مثلاً ضمن رسالته الجوابية على رسالة ابن الربيب : «.. فما زلت انتسم ذكرك ، فأترسم قدرك ، واسمع خبرك فأرى خبرك . حتى ارادت الأيام كشف السر ورفع الستر ..» (٢) . فالفاظ : انتسم ، أترسم وسر وستر وخبرك وخبرك الفاظ متجانسة في كل اثنين منهما ولكن جناسها ناقص ، غير ان التعبير بها قد بدا اكثر جمالا

(١) المصدر نفسه ص ١٥٣ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٣٦ .

واقوى تأثيراً وهو ينظم إلى الصور الاستعارية الكنائية الممتدة على طول الرسالة المذكورة ..

ومن هذا الجنس ما يتردد بنسبة الكبر في عدد من رسائله الأخوانية ومنها قوله من عبارات رقمة الشفاعة «...» وبحسب القائل يكون المقال وعلى قدر الجائل يتسع المجال وابو الربيع من علم لسانه ان قال، وبيانه قصراً وطال. (١). فالفاظ : قائل ومقال ، وجائل ومجال ، وقال وطال ترتبط كل اثنتين منها بعلاقة جناسية ناقصة تتفق فيها اللفظتان في امرين من الأمور الأربعة المشترطة في الجنس التام ، وذلك بما عرف عن الجنس التام في عرف البلاغيين. وفي رسالة اخرى نقرأ قول ابي المغيرة : «...تنبه الدهر من رقدته ، وحل من عقدته ، وقبل مني ، وظهر الرضى عني وقال دونك ما جمـــــح فقد سمح واليك فقد دنا ، ما كان في المنى ، فطرت بجناح الارتياح ، وركبت إلى الغمام كواهل الرياح وقلت فرصة تغتنم ، وركن يستلم...» (٢).

وفي هذه العبارات الوان من الجنس الناقص وهي تتوالى هنا بخلاف مجبئها في الأمثلة السابقة متفرقة قليلة ، فهي لا تكاد تخلو من تعبير من هذه التعابير المتوالية . وهكذا نستطيع القول بأن هذا النوع من الجنس قد وظف لخدمة المعنى وزيادة ملامح الجمال وسمات الرقة والرشاقة فيه مع الأيقاع المؤثر والنبيرات الرقيقة . ونستطيع ان نلمح في تعابير ابي المغيرة صوراً طباقية ايضاً إلى جانب صور اعجاز واذا كان الطباق الجمع بين المعنى وضده في الكلام فان تعابير كاتبنا تكاد تزدحم بهذه الصور حتى ليمكن القول بأن الطباق يشكل احد اركان التعبير عند ابي المغيرة ولا تخلو رسالة او سطر من رسالة من تقابل في المعنى وذلك في قوله مثلاً :

«... وحالي حال للسقام بها اتصال ، وللصحة عنها انفصال...» (٣)
ففي هذه العبارات القليلة نقرأ الفاظ السقام والصحة ، والاتصال والانفصال

(١) الأخيرة / ابن بسام ق ١٢١ ص ١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٦ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٥٤ .

وقد تضادت كل اثنتين في المعنى كما هو واضح ، وهكذا لو اردنا المضي في التأشير على مواطن هذا النوع من الطباق .

غير ان ما يسمى طباق المقابلة يبدو اكثر استعمالا في عبارات ابي المغيره حيث يكون الأول ضمنه . ومتحققاً فيه ذلك ان كثيراً من تعابيره فيها تقابل واضح في المعنى بين جملتين لا بين لفظتين فقط ويظهر هذا في صدور القطع الثرية كما يظهر في حناياها واجزاها وفصولها المختلفة ، فمن ذلك قوله مثلاً في سياق رسالته الجوابية لابن الريب : «... حتى عارض الجبان الأسد ، وناطح الجوزاء الجلد ، وناطق الأعجم الفصيح ، وبارى الجاهل العالم ، وجارى القاعد القائم (١) ...» .

ففي هذه الكلمات القليلة حشد كبير من المتضادات المعنوية مثل معارضة الجبان للأسد ، وناطحة الجلد للجوزاء ، والأعجم والفصيح ومن قبل ذلك الغارب والسنام .

على اننا اذا تبينا ما ورد في النصوص من هذا النوع وجدنا الكاتب قد صب في صياغته فنه وخبرته وذوقه وطبيعته ومعرفته وعلمه حتى وصل إلى ان يجعل مجموعة من التعابير المتوالي والمتضادة في داخلها مقابلة لتعابير اخرى وتكون خلاصة المعنى الاجمالي للمجموعتين من العبارات طباق مقابلة تشمل النوعين : على صعيد الجملتين المتقابلتين وعلى صعيد مجموعتي التعابير التي تقف كل منهما بازاء الاخرى في المعنى وهذا ايضاً كثير في نثر ابي المغيره ولا يتوقف على نوع واحد معين من الرسائل او موضوعاتها ويكفي ان نورد مثلاً واحداً على ما ذكرنا ليكون دليلاً على ما ورد في معناه عبر الرسائل المختلفة ، ومن ذلك قوله في احداها - وهي من الرسائل التي وردت الإشارة إليها في سياق الحديث عن الرسائل الاجتماعية : «... لم ازجر للقاء سيدي السانح ، واستمطر الغادي والزائح ، وأروم اقتناصه ولو بشرك المنام ، واحاول اختلاسه ولو بأيدي الأوهام ، واعانب الأيام فلا تعتب ، واقودها اليه فلا تصحب ، حتى

إذا غلب اليأس ، وشمّت الناس وضربت بي الأمثال ، فقليل أكثر الآمال ضلال ؛ تنبه الدهر من رقده ، وحلّ من عقدته ، وقيل مني ، وأظهر الرضى عني . وقال دونك ما جمح فقد سمح . واليك فقد دنا ما كان في المعنى فطرت بجناح الارتياح وركبت إلى الغمام كواهل الارتياح ... (١) .

وإذا أمكننا أن نتوقف في وسط هذا النص من أصل رسالة بدا لنا أنها طويلة استطعنا أن نعين موطن الوقوف عند قوله : فقليل أكثر الآمال ضلال فعندها نتفّح المجموعة الأولى المتضمنة لقدّر وافر من عبارات التقابل الطباق بين كل لفظتين أو جملتين وننظر في المجموعة الثانية التي تبدأ بقوله : تنبه الدهر من رقده ... حيث تمضي عباراتها متقابلة فيما بين أجزائها منفردة ومجموعة . ثم نقرأ المجموعتين فنجد أن أبو المغيرة قد جعل المعنى العام المستفاد من جميع العبارات في المجموعة الثانية ، ونعتقد أن التأمل في العبارات على نحو ما أشرنا إليه يظهر بوضوح لا يحتاج إلى إعادة القول في العلاقة بين كل مفردتين في عبارة أو بين المجموعتين وهكذا يبدو لنا أبو المغيرة - عبر رسائله جميعاً - كاتباً معنياً بزخرفة لوحاته وتلوينها وتزيين فواصلها بالوان من التعبير البياني والبدعي بما يدل على احاطة وسعة بعلوم البلاغة وفور آلة التعبير البلاغي الناجح المقبول والبعيد عن الأيغال والالتواء أو الهبوط والسماجة والضعف ... وإذا كان ما استعمله أبو المغيرة من ذلك من تقاليد الكتاب والأدباء فإن ذوقه وطبعه وشخصيته المتأثرة بليثته كل ذلك جعله يمارس هذه الفنون ، ويعرضها بشكل يبدو أقرب إلى الجادة والطرافة منه إلى التقليد والمحاكاة .

(١) الذخيرة / ابن بسام ق ١٢١ ص ١٥٦ وما بعدها بشأن النص المذكور من أصل الرسالة .

الخاتمة

لعلّ مما يكمل الصورة عن نثر ابي المغيرة عبر الجولة التي مرت في صفحات هذا البحث ان نتوقف عند التأشير على اهم النقاط التي ابرزها البحث والنتائج التي تمخض عنها في نثر اديب اندلسي عاش في فترة مهمة خطيرة من فترات الأندلس .

وفي مقدمة ما نشير اليه ان ابا المغيرة كاتب معروف مشهور على الصعيد الرسمي والشعبي والاجتماعي وان موضوعات فنه الثري قد استوعبت جل الموضوعات التي تتصل بالمجتمع بصورة مباشرة او غير مباشرة ومنها الموضوعات الاخوانية والاجتماعية والمراجعات والمجاوبات واللهو والمجون وشيء من وصف الطبيعة وفي مجال السمات الفنية التي امتاز بها نثر ابي المغيرة اظهر البحث عناية الكاتب كبيرة بفنون البيان والبديع إلى جانب الفنون الأخرى من البلاغة وقد جاء اسلوبه في هذا مرصعاً مزخرفاً بهذه الألوان البديعة دون ان يشطح قلمه - فيما نرى - إلى الغموض والأبهام او الايغال في وحشي الألفاظ وغريبها او عميق الأفكار والمعاني ، وكانت الاستعارة ثم الكناية في مقدمة موضوعات علم البيان كما جاء الطباق والجناس في مقدمة فنون علم البديع . ومن النتائج التي نرى ان البحث قد توصل اليها مكانة أبي المغيرة في أدباء عصره من الأمراء وغيرهم وما كان يربطه بهم من علاقة ترتفع إلى مستوى الايجابية في التعبير بعبارات الحب والمودة والتقدير والاحترام ، أو نهبط إلى مستوى السلبية في التعبير بألفاظ الازدراء وعبارات الاحتقار والامتهان و كل ذلك عبرت عنه النصوص المجترأة من رسائل قصيرة ومطولة .

ومن ذلك أيضاً التزام أبي المغيرة بمنهج الأندلسيين في القرون الأولى بالسير على نهج المشاركة والانطلاق من آثارهم ومصنفاتهم وتأليفهم بوصفها القاعدة الأساس والركن المهم في ثقافة الأندلسيين وأدبهم وكذلك السير على العديد

من أساليبهم في التعبير والتصوير سواء اكان ذلك في النثر أو الشعر ، ومع ذلك كله فقد كان لأبي المغيرة - كما كان لغيره من الأدباء المعاصرين - سمات خاصة وملامح مميزة عبرت عن شخصية الأندلسي بجميع ملامحها وقسماتها وطباعها وأمزجتها كما صورت البيئة الأندلسية وما انطوت عليه من الزينة والزخرف والتلون بألوان الزهر والتمر والشجر والبناء وال عمران وملاءمة الجو وكثرة المياه ووفور الأقوات والأزواد وغير ذلك مما بسدت أصدائه واضحة متردة في جنبات أدب الأندلس وصفحاته بعامة ولدى أبي المغيرة ومعاصريه بخاصة . وأخيرا فان هذه الدراسة الموجزة - وهي تركز على النثر المتوفر لأبي المغيرة - لتؤكد أهمية دراسة شعره في حنايس النصوص المتوفرة بين ايدينا لتكون الصورة أدعى إلى الوضوح وأقرب إلى الفكرة المتوازنة وذلك ما سيكون في بحث نال باذن الله وتوفيقه .

• • •

المصادر والمراجع

- ١ - الأدب الأندلسي / موضوعاته وفنونه / د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين ، بيروت / الطبعة الثالثة ١٩٧٥ م.
- ٢ - بغية الملتبس / الضبي / طبع مطبعة روخس سنة ١٨٨٤ م .
مكتبة المثنى ببغداد . ومكتبة الخانجي بمصر .
- ٣ - البيان المغرب في أخبار الأندلس ، ابن عذاري المراكشي .
تحقيق : ج . ك . / كولان / أ . ليفي بروفنسال .
دار الثقافة ، بيروت .
- ٤ - جدوة المقتبس / ابو عبدالله الحميدي . طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة / ١٩٦٦ م .
- ٥ - الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة / ابن بسام . تحقيق د. احسان عباس
دار الثقافة / بيروت ١٣٩٩ / ١٩٧٩ م .
- ٦ - زهر الاداب / الحصري القيرواني ، تحقيق : علي محمد البجاوي
دار احياء الكتب العربية / عيسى البابي الحلبي وشركاه ط ٢ .
- ٧ - الصلة / ابن بشكوال . وابو القاسم خلف بن عبد الملك ٤٩٤ - ٥٧٨ /
الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦ م .
- ٨ - مطمح الأنفس ومسرح التأنس .. الفتح بن خاقان . تحقيق / محمد علي شوابكة ، دار عمار / مؤسسة الرسالة / الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٩ - المغرب في حلل المغرب / ابن سعيد واخرون / ت د . شوقي ضيف
دار المعارف بمصر ١٩٦٤ طبعة ثانية منقحة .
- ١٠ - نفح الطيب : احمد بن محمد المقرئ التلمساني / تحقيق يوسف الشيخ محمد الرفاعي ، دار الفكر / بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م .